مكتبة ياسمين

دانييل پناك

قانون الحالم

ترجمة: محمّد أيت حنّا

منشورات تكوين | مرايا
TAKWEEN PUBLISHING

مكتبة ياسمين

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

الكاتب: دانيل پناك
عنوان الكتاب: قانون الحالم
ترجمة: محمّد آيت حلّا

العنوان باللغة الأصلية: La loi du rêveur
الكاتب: Daniel Pénac

تصميم الغلاف: يوسف العبدالله
تنضيد داخلي: سعيد البقاعي

ر.د.م.ك: 978-9921-723-87-8
الطبعة الأولى - يوليو/ تموز - 2023
2000 نسخة

جميع الحقوق محفوظة للناشر ©
© Éditions Gallimard, Paris, 2020

منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING

الكويت - الشويخ الصناعية الجديدة
تلفون: 40 04 81 98 965 +
بغداد - شارع المتنبي، بناية الكاهجي
تلفون: 60 58 00 11 78 964 +

takween.publishing@gmail.com
takweenkw
takween_publishing
TakweenPH
www.takweenkw.com

إلى شارلوت، وفانسن، وآنا، ولول
إلى ذكرى جون برنار بونتاليس

مكتبة ياسين

I

الفيضان

حين كنت في السَادسة أو السَابعة من عمري، كنت على يقين من أنّ ثمّة حياتين، واحدة نعيشها بعينين مفتوحتين، وثانية بعينين مغمضتين.

فيديريكو فيلّيني

كتابُ أحلامي

مكتبة ياسين

1

إن كان من الممكن التأريخ للَحظة التي يصير فيها المرءُ كاتباً، فأقول إنّي صرتُ كاتباً في اللَيلة التي جمعتني فيها تلك المحادثة بلُوي. كنت في العاشرة من عمري، وكنت أؤكّد لرفيقي الأعزّ أنّ النُور ماءٌ.

- ماء؟ هل أنت متيقنٌ ممّا تقول؟

- كلّ اليقين، إنّ النُور ماء.

- نور الكهرباء؟ النور المنبعث من مصباحنا هذا؟ هو ماء؟

كنّا في جبال فِركور، وقد خيّم اللَيلُ، وجرت المحادثةُ المذكورة في غرفتي التي كنت أستضيف فيها لوي على الدَوام: هو في سريره، وأنا في سريري، وبيننا المصباح، وعلى الجدار، فوق رأسينا، غلّقت رسمةٌ كثيرةُ الألوان لفيديريكو فيلّيني. ذلكم هو الدَيكور.

- نعم، نور المصابيح الأصفر، ونور النيون الأبيض، ماء.

- من قال لك هذا؟

- المعلّم، الأسبوع الماضي، أثناء الحصّة التي غبتَ فيها. شرح لنا أنّ في الجبال، أي هنا، النُور ماءٌ، النُور هو الأنهار التي نحوّلها إلى بحيراتٍ بواسطة السّدود، ثمّ ندجّلها في مصانع خاصّة.

- ماءٌ ندجّله؟ أأنت متأكّدٌ من أنّك فهمت؟

لم أكن متأكّداً حقّاً من أنّني فهمت، لكنّ نبرة التهكّم في حديث لوي، جعلتني ألوذ بالارتجال:

- لقد فهمت تماماً ما قاله الأستاذ! ما إن يدجّن الماء، حتى يسيل بأقصى السّرعة في أسلاك كهربائية، ويدور بوتيرةٍ مذهلةٍ في خيوط المصابيح، حتّى أنّه، لفرط ما يسخنُ يتحول إلى

مكتبة ياسين

نورا!

ولّى لوي وجهه شطر الحائط:

- إمّا أنّك فهمت الأمر رأساً على عقب، وإمّا أنّك تختلق قصصاً.

ثمّ أضاف:

- طبيعيّ، حتّى أنا كنت أفعل الشّيء نفسه، حين كنت في مثل سنّك.

وتلك مزحةٌ قديمة ترسّخت بيننا. فهو وُلد يوم 31 ديسمبر، وأنا في الفاتح من يناير.

- لكنّ الفرق بيننا لا يتعدّى يوماً واحداً!

- حتّى إن كنتُ قد وُلدت يوم 31 ديسمبر، في الساعة 59 :23؛ ووُلدتُ أنت في الفاتح من يناير، في السّاعة 00:00 وثانية واحدة، فإنّ الفرق بيننا يكون سنةً. وفي سنةٍ يستطيع الإنسان أن يتعلّم كثيراً من الأشياء، وذلك ما ستقف عليه بنفسك.

تلك النّكتُ التي لا تُملّ.

كان لحديثنا أن يتواصل اللّيل بطوله، لولا أنّ وجه أمّي قد برز من خلال شقّ الباب الموارب:

- أطفئا المصباح، وناما، سننطلقُ في الصّباح الباكر، والرّحلة طويلة. ناما!

وبينما أطفئ المصباح، همست إلى لوي:

- يومٌ واحدٌ لا يساوي سنةً، والنوز ماء!

كان صوتُه مشبعاً بالنّعاس، وهو يجيبني:

- سنرى غداً، حين تبلُغ سنّي هذه.

وفي الثانية التالية ما عاد يتردّد في المنزل سوى أصوات التلفاز البعيدة. كان أبي وأمّي يشاهدان واحداً من تلك البرامج التي كانت قد بدأت تناقش مستقبل فرنسا وصحّة الكوكب. دائماً ما يأخذ

مكتبة ياسين

النعاس بالوالدين أمام شاشة التلفاز المشتعلة، ليستيقظا منتفضين في تلك السَاعة التي يستغلَ فيها التلفزيون نوم البشر، ليحكي حياة الحيوان.

2

غطّ لوي في النوم، وأنا ما أزال أتساءل عمّا قاله الأستاذ بالضَبط. حدّثنا عن المفاعلات النووية، عن توربينات الرياح التي تصنع، بحسبه، الكهرباء من الرّيح، كما حدّثنا عن هذه السّدود في الجبال، السّدود التي تُنتج النور الماء. تلك حالُ محطّة الطّاقة الكهرومائية التي نزورها غداً مع والديّ، في جبال الألب بمنطقة بروفانس العليا، وكانت هي مُنطلق حديثنا. نحن في غاية الحماس للجولة المرتقبة. فقد وعدنا أبي أشياء شتّى: نستطيع أن نمارس التسلّق، والاستغوار، والسّباحة في البحر، بل حتّى الغوص مستعينين بقناني الهواء المضغوط، مثلما يفعل الكبار. إنّها «الجولة الكبرى!» كما قال أبي واعداً. وكنت أنا ولوي متحمّسين غاية الحماس لفكرة الغوص.

- أنتما محقّان يا صبيّان، إنّ السّباحة تحت الماء، ستجعل منكما سمكتين، بمعنى الكلمة! ستتحرّران من الجاذبية.

بضع سنواتٍ بعد ذلك، صارت تلك الخرجات العائلية تبعث في نفسي الملل، طبيعي، لكن في سنّ العاشرة ما كنت لأتصوّر متعةً أكبرَ. خاصّةً وأنّ لوي يصاحبني.

حقيبتا الظّهر، وحبال السّحب، وقنينتا الهواء المضغوط، كانت كلّها تنتظرنا أسفل السّرير. أجل، إنّ الأفق يعد بمغامرةٍ لا مثيل لها! ثمّ غداً، حين نبلغ السدّ الكبير، سيشرح لنا أبي كلّ ما يتعلّق بكهرباء الجبال. أبي هو ملك الشّرح. وهذا أمرٌ يوافقني فيه حتّى لوي.

وأنا غارقٌ في تلك الأفكار، كنت أكاد أسمع ما يقوله المتناظرون في التلفاز. ذاك أنّ باب الغرفة

مكتبة ياسين

ظلَ موارباً. أ كان في نيّة أمّي أن تراقبنا طيلة اللّيل، أم تراها غفلت عن غلقه فقط؟ على أيّ حالٍ ظلَ المصباح، الذي رافق طفولتي المبكّرة، يلمع في البهو. قلت لنفسي، لم أوقد الوالدان المصباح؟ منذ أربع سنواتٍ أو خمس على الأقلّ لم يوقد هذا المصباح. فأنا لم أعد طفلاً صغيراً، وما عدتُ أخشى الظّلام. زد على أنّ لوي معي هنا! ورغم ذلك ها أنا ذا أرى الهالة الضّهباء، هناك في ظلام البهو، منتشرةً حول المصباح الصّغير، كأنّها عينُ بوم. لم أستطع أن أنزاح عنها بعيني. قلت لنفسي «هذا البوم سيحرمني النّوم». قرّرت أن أحدّق في تلك العين حتّى تُغمض. إنّ طفلاً، في العاشرة من عمره، ليؤمِن، إيماناً صلباً، في أمثال تلك الأمور: إن حدّقت في المصباح طويلاً، من غير أن أطرف، فسينطفئ من تلقاء نفسه؛ مسألة إرادةٍ صرف. سيغمض البوم عينه. أثراهن؟

لا أدري كم طالت تلك المبارزةُ بيني وبين المصباح. تحوّل كلّ شيءٍ إلى سوادٍ حول ذاك النّور المذهّب. اختفى من العالم كلّ شيءٍ سوى عين هذا البوم الذي يتحدّاني في اللّيل:

- حدّق فيّ! هيّا، حدّق فيّ!

البوم وأنا.

إرادةٌ تواجه إرادةً.

وفي نهاية المطاف، انتصرتُ.

صاتَ المصباحُ: «بوف!».

ذاك صوتُ أعرفُه. «بوف!» صوتُ الانتصار! انفجر المصباح! حدّقتُ فيه حتّى انفجر! «بوف!» تلاها وابلٌ من شظايا الزّجاج على بلاط الدّهليز.

استدرت باسماً إلى الحائط، لأنام.

مكتبة ياسين

لكنني لم أنم.

من أقصى البهو، واصل البوم استفزازي:

- أنظر إليَ، أنظر إلى عيني المثقوبة إن كنت تجرؤ!

ولم أكن أجرؤ. خوفٌ يصعدُ من أعماق طفولتي المبكرة، يمنعني من قبول التحدّي. جاهدتُ في التحديق في السَقف، وإن لم يكن يبدو في الظَلام. جمّدني الخوفُ في تلك الوضعية مدّةً طويلةً؛ ثمّ ما لبث الإحساس بالعار أن طغى -أنسيت أنَك في العاشرة من عمرك!-، فواجهتُ البوم مرّةً أخرى.

اندلع الرّعبُ. هناك في البهو، كان يسيل سائلٌ أصفرُ من المصباح المبقور. يسيل من غير أن يحدث أيّ صوتٍ، وينتشر على الأرض.

ناديتُ لوي بصوتٍ خفيض.

- لو!

سببان وجيهان لكي أوقظ صديقي؛ أولاً، الخوف -الرّعبُ قد تمكّن من مسامّ جلدي-، ثمّ الفرح، فرح بأن أبرهن أنّني كنت محقّاً فيما أخبرته به قبل قليل.

- لو ! انهض أيّها الأحمق! انظر!

وما يزال النّور يسيل من المصباح المبقور. والصّمت يزيدُ من رعبي. الصمتُ والبِركة على الأرض ما تنفك تتّسع. كان على الأرض من النّور ما يفوق سعةَ مصباحٍ بذاك القدرِ من الصّغر.

جعلتُ أتلمّسُ مصباح السّرير في الظّلام، وأنا أنادي لوي.

- هيا، استيقظ! أليس نوراً سائلاً هذا؟ لا بل إنّه فيضانُ نورٍ! نورٌ مع ذلك لا يضيء شيئاً. فالبهو حول البركة مظلمٌ حالك. بيّنٌ أنّ هذا السائل ينتشر من غير أن يضيء ما حوله. نور لا يشعّ. لا يضيء غير نفسه. لم يعد نوراً، وإنّما هو كعسل خاب يسيح

مكتبة ياسمين

منتشراً في اللّيل، وقد صار الآن بركةً بأتمّ معنى الكلمة، بركةً تتسع في الظّلام الحالك. كانت العتمة في غرفتنا شديدة لدرجة أنّني لم أكن أتبيّن سرير لوي.

- لو، بحقّ الربّ، استيقظ!

أخيراً، وقعت يدي على سلك مصباحنا، ثمّ فاصله. أوقدتُه بارتياحٍ هائل.

- انظُر يا لو!

لكنّ سرير لو كان فارغاً.

بل كان مرتّباً.

لم يكن لوي في الغرفة.

وكذلك اختفت معدّاتُه كلّها.

لهول الصّدمة سحبت بعنفٍ خيط المصباح حتّى طار المصباح واصطدم بالحائط. انفجرت اللّمبة مثل ثمرة فاكهة. انفجارٌ أصفر. أصفرُ أفقعُ صفرةً من عسل مصباح البهو، لكنّه يسيل بالثبات نفسه. كأنّه ذهبٌ. أو، على أيّ حالٍ، هو ذهبٌ تلك الزّهيرات في المرج التي تسمّيها أمّي أزرار الذّهب(1). هو ذا: دفقٌ من أزرار الذّهب على الحائط، وعلى الأرض، ذاك الضّبيب الفاقع الصّفرة الذي، هو أيضاً، ليس يضيء شيئاً. لا بل إنّ الظّلمة ما انفكّت تشتدّ في غرفتنا.

مكتبة ياسين

3

أمسكت بحقيبتي المعدّة للجولة، بعدما تلمّستها على غير هدى، ثمّ أفرغت محتواها على السرير، وأخذت ألقي بأشيائي، شيئاً فشيئاً، حتّى استقرّت أصابعي على مصباحي الكشّاف، المصباح الذي يفرض علينا أبي أن نلبسه في جباهنا، كلّما مارسنا الاستغوار.

صارت جبهتي الآن تضيء الغرفة. أجل، إنّ سرير لوي فارغٌ، وأشياءه اختفت. ومصباح السّرير ملقى بالفعل على الأرض، يسيل منه صبيبٌ ذهبٍ، سيبلّغ الباب قبل أن أبلّغه أنا، ما لم أعجّل بالخروج.

- بابا! ماما!

غادرت الغرفة هرولةً.

قفزت من فوق البركة، وركضت في البهو، متجنّباً عسل المصباح، واثباً من جزيرة ظلّ إلى أخرى، مثلما يعبر المرء النّهر قفزاً من صخرةٍ إلى أخرى، محاذراً أن أنزلق، أن ألمس النور، أن يصعقني الكهرباء.

- بابا! ماما!

ركضت على الدّرج، وحين فتحت باب الصالون، لم أجد والديّ. لم يكن ثمّة سوى جهاز التّلفاز. لقد بثّ اليوم قادراً على الحديث عن الأمر بهدوء، لكن يومها بقيت ثواني عديدةً متسمّراً أمام الجهاز، لا أفهم ما أراه. كان الجهازُ مبقوراً. ومنه تسيل بقعةُ نورٍ صامتة، قوامُها وجوهٌ تتمطّط كالعلكة (بعضُ الوجوه كان ما يزال يتحدّث، كما هو بيّنٌ من حركة شفاهها، لكن لا تُسمع من حديثها كلمة). ثمّ، لفرط ما تمطّطت الوجوه فقدت كلّ شكلٍ، واختلطت ألوانُها، كما يحدث للشّوكولاتة قبل أن تمتزج بحليبي.

مكتبة ياسين

كنت أرى ذلك كلّه قائلاً لنفسي: إنّه تماسّ! قد يبدو الأمر جنوناً، لكنّني ما عدتُ مندهشاً لفيضان النّور. سرعان ما يألف المرء كلّ شيء. فقط قلت لنفسي، إنّ حماقاتي قد تسبّبت في تماسّ شامل. قلت لنفسي، لا بدّ أنّ كلّ الأجهزة المرتبطة بالكهرباء قد فسدت، الثلاجة، والهاتف، والسخّان، لا بدّ أنّ العطب قد طالها جميعاً. ينبغي أن أوقظ أبي، أن نهرع إلى قاطع التيّار الكهربائي، أن نقطع التيار ليتوقّف كلّ شيء، لا حلّ لنا غير هذا، أن نقطع التيار، فيعود كلّ شيءٍ إلى وضعه الطّبيعي!

على أنّ بلوغ غرفة والديّ كان يتطلّبُ منّي عبورَ الصالون، وقد كاد يغطّيه برمّته النّورُ الرّخاميّ السائلُ من التلفاز. أجل، لقد ذكّرني صبيبُ النّور بقطعة الرّخام على مدخنة جدّتي، مدخنة عليها مجسّم القديس سيباستيان، يحوطُ رأسه ذهبُ هالةٍ هائلة. كان ذاك الرّخام حجراً كامداً بارداً، تتداخل فيه عديدُ الألوان مشكّلةً وجوهاً متغيّرةً، مثل الأشكال في النّور الميّت الذي يجتاح الآن الصّالون. أذكر أنّني طويتُ البساط كي أدفع بلجّةِ النّور إلى الجزر باتّجاه التلفاز، فقط ما يكفي من الوقت لكي أبلغ باب غرفة والديّ. وحين أغلقت بابها عليّ، كان آخر شيءٍ رأته عيني هو الصالون وقد غمره الصّبيب المتعدّد الألوان، الصبيب الذي يلاقي شلّالاً من علٍ وذهباً نازلا على الدّرج. الشّلالُ يسحب معه المعدّات التي جهّزتها للجولة. وقنينتا الهواء المضغوط تتدحرجان من درجةٍ إلى أخرى.

- بابا، ماما، استيقظا!

لكنّني كنت أشعر بنفسي أتحدّث في غرفةٍ فارغة. والديّ ليسا في الغرفة. كنت أشعر بغيابهما فادحاً، حتّى ما قدرتُ أن أنظر إلى سريرهما. لكن، كان لا

مكتبة ياسمين

بدَ من أن أحزم الأمر. فلما وقع نوز كشَافي على السَرير، رأيته، كسرير لوي، فارغاً، ومثله مرئباً، وكذلك اختفت معدَاتُهما.

- بابا! ماما!

لكن، هذه المرَة انحبست الصَيحة في حلقي. جاس نوز كشَافي الجدران الأربعة، فوقع على ملابس نوم والديّ، معلَقةً في خطاطيفها، ثمَ تاه من النَافذة المفتوحة.

من جانبي تلك الحفرة المعتمة، كانت الستائر تتماوج في مهبّ نسيمِ اللَيل.

قلت لنفسي: «من هنا خرجوا».

عبرت الغرفة، وخرجت من النَافذة أنا أيضاً.

مكتبة ياسين

4

أظنُّ أنني كنت أنوي طلب المساعدة. أو ربَما كنت ألتمس الصحبة فقط. لم أكن أريد أن أبقى وحيداً في ذلك المنزل. لم أدر لم تركوني جميعاً - بابا، وماما، ولوي... والديّ، صديقي الحميم... ولا، لم أخذوا معدَاتهم معهم. لا يعقل أنَهم قد ذهبوا في الجولة بدوني! أمن علاقةِ بين الفيضان والضَوء؟ هل غضبوا لأنَني تسبَبت في هذه الكارثة؟ لكنَ الاباء لا يتخلَون عن أبنائهم رغم ما يرتكبونه من حماقات! مهما عظُمت تلك الحماقات! والصَديق لا يتخلَى عن صديقه لأنَه غلبه في حديثٍ من الأحاديث التي تسبق النُوم! لا أحد يفعل ذلك! خاصَة والديّ أنا! خاصَةً لُوي! إنَ أبي ومون، أمَي، كانا والدين مثاليَين لدرجة أنَني كنت أتساءل أحياناً، عمَا إذا كنتُ قد اخترتُهما بنفسي، قبل أن أولد. كأنَما يحلَق أطفالُ العالم كلَهم، قبل ولادتهم، فوق سوقٍ هائلٍ لبيع الآباء (ليست السَوق كلمةً موفَقة؛ إذ تحيل شيئاً ما على العبيد، لكنَني لم أجد غيرها)، ويختارون الأبوين اللَذين يرغبون في العيش معهما.

سنتين، أو ثلاثاً، بعد الواقعة، سألني لوي ذات مساء، ونحن نناقش القضيَة:

- وفق أيَة معايير يتمَ الاختيار؟ لم نختار هذين الأبوين دون غيرهما؟

- لا أدري، ربَما بالحدس، نختار الأبوين اللَذين يبدوان لنا ألطف من غيرهم...

- لطيفين؟ ما المقصود باللَطف؟

- لطيفين، مثل والديّ أنا! ومثل أمَك!

- ولم لا مثل أبي؟

مكتبة ياسين

صمتٌ محرج. لقد توفي والد لوي منذ بضع سنواتٍ.

- قصدت أن أبيّن لك أنّ معيار «اللّطف» غير كافٍ. كان أبي غايةً في اللّطف، لكن أيضاً شديد الموات. فإن كنتُ أنا من اختاره، فلا بدّ أنّني قد أخطأت الاختيار شيئاً ما، أليس كذلك؟ كنت أستطيع أن اختاره أقلّ «لطفاً»، وأكثر «دواماً»، ألا تظنّ ذلك؟

مع لوي قد تنطلق النّقاشات من أيّ موضوعٍ؛ اختيار الوالدين، الكهرباء السّائلة، الاختلاف بين الكلاب والقطط، الأولاد والبنات، ننطلق فعلاً من أيّ موضوعٍ، ولا ندري البتّة إلى أين قد يقودنا الحديث.

ذلك المساء: -خلص إلى التّالي: -لسنا نحن من يختار والدينا، ولا هم من يختارنا، إنّما هي يناصيب علم الوراثة الكبرى.

- ماذا؟

- دع عنك هذا، سنكمل الحديث غداً.

أحاديثنا كانت تتمّ أساساً مساءً.

كان لوي يقول: -علينا ألّا ننهي أبداً حديثاً قبل النّوم، فقد لا نجد ما نقوله حين نستيقظ، وسيكون أمراً فظيعاً.

الخلاصة، تلك اللّيلة، ليلة الفيضان، خرجتُ من غرفة والديّ. ربّما خافا من عبور الصالون، ربّما كانت الكهرباء السّائلة تسدّ باب المنزل، ربّما، بسبب الشلّال الذي يسحب معه معدّاتي، لم يجرؤا على صعود الدّرج وإنقاذنا. أو ربّما، ببساطة، وثبا من النّافذة طلباً للنّجدة. لا بل هذه، على الأرجح أقوى الفرضيّات. لم يتخلّيا عنّي. لا بل بالعكس. ذهبا يطلبان مساعدة الجيران، أو رجال الإطفاء، أو الشّرطة، أو أيٍّ كان. والآن، دوري أنا في العبور من

مكتبة ياسين

هذه النافذة.

مكتبة ياسين

5

ضعقتْ لما رأيتُه في الخارج. لم يكن منزلنا وحده الغارق في الفيضان، وإنّما المدينة بأسرها. شلالاتٌ من نورٍ ميت تسيل على واجهات المباني. الشّقق تتقيأ كسكارى في نهاية حفل: صبيب من ذهبٍ وعسلٍ، مصابيحُ النيون تسيلُ بسيلٍ أبيض ومغبرّ، ومن أجهزة التلفاز سيلٌ متعدّد الألوان، ولُجَجٌ من الزّحام السائل. النوافذ كلّها تقطر سائلاً يفيض حتى يبلغ الرّصيف، ويجرف في طريقه النّفايات التي تطفو فيه متهادية، وكان السائل زلقاً لدرجة أنّ السيّارات، في مفترق الطّرق عند الكنيسة، كانت تصطدم بعضها ببعضٍ، وإن بذل الشرطيّ جهداً في محاولة تنظيم السّير.

كان شرطياً عرفتُه في طفولتي المبكّرة، بردائه الذي يغطّي الكتفين، وطاقيّته العسكرية، شرطياً من الزمن الذي كانت فيه الشرطة ما تزال ترتدي أمثال تلك الملابس. وكان يُتقنُ عملَه. كأنّما هو شرطيٌ آليّ، زُرع هناك، تحت مصباح الشّارع، في وسط ساحة الكنيسة. غير مبالٍ بالفيضان، كان قد ارتقى كرسيّاً ليحمي قدميه من سيل الثور، وواصل تأدية واجبه. لكن سدى. على الرّغم من عصاه وصفّارته، ما تزال السيّارات تنزلق نحو تقاطع الطّرق، وتتصادم تصادم سيّارات الملاهي. ومن مصابيحها المهشّمة، ما يلبثُ أن يسيل نورٌ رخوٌ، فينضمّ إلى الحسّاء الزّخاميّ الفظيع الذي يخلّفُ فيه ضوءُ مصابيح التقابل الأحمرُ زخارفَ دموية ونقوشاً. وذلك كلّه يحدث في ليلٍ ما عاد يضيئه شيء. لأنّ هذا الفيضان المتّصل من الثور لم يكن يلمع إلّا كما لمع عسلُ مصباح غرفتي من قبلُ. كان الفيضان يغمز مدينةً، تُركت برمّتها لليل.

مكتبة ياسين

وسط تلك الظّلمة المطبقة، ما من منبعٍ للضّوء، عدا حبابة مصباح الشّارع التي كانت تغظي رأس الشرطيّ بمخروط من ضوءٍ أبيض، والعلامة المضيئة الحمراء التي تشير إلى محلّ بيع التبغ عند ركن شارعنا، وأضواء مصابيح السيّارات قبل أن تتهشّم، زد على ذلك القمرات المضيئة في السيارات الجانحة.

أجل، لقد أوقد جميع السّائقين مصابيح أسقف سياراتهم، ربّما طلباً للاطمئنان، فغدت السيّارات أشبه شيءٍ بكُرات نورٍ هائمةٍ في اللّيل، أبصر فيها الأزواج وزوجاتهم يتشاجرون، وكذلك الأبناء والآباء، والإخوة والأخوات، والكبار والصغار، الجميعُ يتّهم الجميع، كلّ فردٍ يدّعي أنّ ما يقع غلطةُ الآخر؛ اتّهاماتٌ من هذا القبيل: لو أنّك لم تكسر مصباح السّهر، لو أنّك لم تُسقط الأباجورة؛ اتّهاماتٌ أكاد أقرؤها على الشّفاه، بينما كلّ السيّارات، سواء تلك التي ضدمت أم تلك التي لم تصدم، تنجرفُ مع نهر النّور الميت، مثلما كانت تنجرف حاويات النّفايات منذ قليل، وقد اكتظت أقفاضها العلوية بكلّ ما استطاع أصحابُها ربطه فيها على عجل، وكذلك فعل والديّ، وقد صرتُ أبصر الآن وجهيهما مارين تحت نافذة بيتنا؛ والدي يشدّ المكبح اليدويّ بكلّ ما فيه من قوّة عاجزة، وأمّي تبكي لأنّ ولدها متردّد في القفز والانضمام إليها، لكن إلى أين القفز يا ماما؟ أفي هذا السيل الكهربائيّ؟ هل أقفزُ لأشوى وأجرف كنفاية لا أهميّة لها؟ كلّا!

الظّاهر أنّ الجميع يلتمس الهرب، لا تشغل بالهم سوى فكرةٍ واحدة، أن يُخلوا المدينة قبل أن تغرق في هذا المدّ من النّور الميت، قبل أن تغوص برمّتها، وفي غمرة هربهم لم يكن النّاس يقولون سوى

مكتبة ياسين

«نفسي نفسي!»، لا أحد يهتمّ لأحد، لا أحد إلّا أمّي التي كانت تنادي على ابنها، لا أحد سوى مون التي ألصقت وجهها بزجاج نافذة السيّارة، وجعلت تنادي ابنها، لكن كيف لي أن أقفز يا ماما؟

أمّا الشرطيّ، هناك، فقد تعلّق بعمود مصباح الشّارع. لقد جرف التيار كرسيّه. يرفع قدميه عالياً كيلا يصعقه التيّار، لكنّه يواصل ببسالةٍ تنظيم السّير، محرّكاً بيده الطّليقة عصاه البيضاء، ومصفّراً بأعلى ما يمكن.

- سيّدي الشّرطيّ!

انتهى بي المطاف إلى النّداء عليه، كنت في أمسّ الحاجة إليه!

- سيّدي الشّرطيّ، ساعدني! أريد الانضمام إلى والديّ!

كان لديه من الأولويات الكثير، لينشغل بندائي. ما تزال السيارات تتصادم في ملتقى الطرق، وما يزال النهر يسحبها، وقد تحوّل الآن إلى تيّارٍ جارف.

- هلّا نظرتَ إليّ!

حدّقت في الشرطيّ بكلّ ما فيّ من قوّة، كما حدّقت من قبل في مصباح البهو؛ قلت لنفسي، إن أطلتُ فيه التحديق، فلا بدّ أن ينتهي به المطاف إلى رؤيتي، ولا بدّ أن يهبّ لمساعدتي.

وبالفعل، رآني.

لكنّه لم يهبّ لمساعدتي.

صاح: - هه! أنت، هناك في النّافذة، هلّا أطفأت المصباح في جبهتك؟ ألا ترى أنّك تبهر به عيون الجميع؟ لاحظ كلّ هذه العربات التي تتصادم بسببك!

بينما يصيح بي -وكان صوته يبدو لي ألوفاً على

مكتبة ياسين

نحوِ غريب-، انزلقت شاحنةُ، فصدمت عمود الإنارة، فانكسر بغتةً كمسمارٍ. انهال على رأس الشرطيّ حمَامٌ من نورٍ أبيض، وتوقّف نبضُ قلبي. قلت لنفسي: سيموت مصعوقاً! لن يبقى في المدينة من حيٍّ غيري!

- سحقاً! أطفئ المصباح في جبهتك وإلّا أبهرتْ عينيك أنا أيضاً!

لم ينجُ من الصَعق فحسب، وإنّما هو ذا يمشي في اتّجاهي، عابراً التيار بخطواتٍ واسعةٍ غاضبة. وكان يلوّح بمصباحٍ يدويّ من تلك المصابيح التي يتفحّص بواسطتها رجالُ الشَرطة، في الأفلام الأمريكية، السيّاراتِ المهجورة. كان يقطر نوراً سائلاً، وقدماه تحدثان أمواجاً من مرمرٍ في التيار الصَامت.

- يبهجُك يا صاح أن تراني مبلّلاً كحساء؟

(أين سمعت هذا الصَوت؟) حين تواجهنا، انتفض ككلبٍ، فانتشرت حول عباءته مروحةٌ من قطراتٍ، تلتمعُ في حزمةِ الضَوء المنبعثة من مصباحي الجبهيّ، مثل هالةِ القدّيس سيباستيان العظيمة، على مدخنة جدّتي.

أشعل مصباحه وسدّده نحوي.

- هيّا، كفاك نوماً، استيقظ يا صاح!

مكتبة ياسمين

6

استيقظت على وجه لوي، يبهر عيني بمصباحه الجبهيّ، ويصبُ على رأسي الماء من قربته. سريره موضَبٌ، وحقيبته على ظهره، كان جاهزاً للجولة، بينما أنا مبلولٌ كحساءٍ، وقد وثبت جالساً على ملاءتي الغارقة في الماء.

- وإذن يا رفاق! أتنزلان أم ننطلق بدونكما؟

كان صوت أبي أسفل الدَرج.

أمَن لوي على كلامه: - هيّا! أسرع، إنّهما ينتظراننا.

ألقى إليّ بمنشفةٍ، ونزل الدَرج!

مكتبة ياسين

II

تحت حلمٍ من أحلام فيديريكو

يبدأ العرضُ ما إن أُغمض عيني

فيديريكو فيلّيني

كتابُ أحلامي

مكتبة ياسين

7

بالطَبع حكيت لهم حلمي، ونحن في السيَارة.

قالت أمّي متعجّبة: - ما أشبه حلمك بحلم فيديريكو!

وكانت تقصد رسمة فيلّيني التي علّقتها في غرفتي.

وقال لي أبي: - أنت أيضاً ينبغي أن تدوّن أحلامك.

وكان ينبغي أن نبيّنْ للْوَي من يكون فيديريكو فيلّيني: سينمائيّ إيطاليّ تبجّله أمّي. وكانت قد اشتغلت على ملابس كثيرٍ من أفلامه. حتّى أنّها نزلت روما، إلى ستوديو شينيتشيتا، حيث كان فيلّيني يصوّر كلّ ما يخطر بباله. ذات صباحٍ مزّق صفحةً من كتاب الحكايات الكبير الذي كان يرسم فيه أحلامه، وناولَ مون الرّسمة التي فرغ منها للتوّ. فجعلت لها إطاراً، وعلّقتها في غرفتي.

- فيلّيني يدوّن أحلامه ويرسمها ما إن يستيقظ.

أمّن لْوَي: - إنّه محقٌّ، فالأحلام تتبخّر كالمياه تحت الشّمس.

وكان صيفاً حازاً. الشّمس تبرزُ الجبال جافّةً.

سألتْ: - وأنت هل تفعل ذلك؟ هل تدوّنُ أحلامك؟

أجاب لْوَي:

- أحلامي لا تُداني نعل أحلامك، لا أهميّة لها. أمّا أنت، فحقّاً ملك الأحلام! مقارنةً بك، أرى نفسي عاجزاً عن الحلم!

ضحكت أمّي، وقالت:

- ما الخطب يا لْوي، صرت تمدح صاحبك؟ لم نألف فيك هذا!

أجابها لْوي، وهو يتابع توالي المناظر:

مكتبة ياسين

- أنا جادٌ. إنَ صديقي حالمٌ مذهلٌ. حين نكبر، سوف يصير كاتباً. أو ربَما سينمائياً، مثل صديقك...

قالت أمَي: - فيلَيني.

قال لوي: - فيلَيني.

سأله بابا: - وأنت، ماذا تنوي أن تكون حين تكبر؟

- أنا؟

بعد تردَد أجاب لوي: سأكون شخصيَةً.

وكذلك كان. صرت كاتباً، فألَفث أبحاثاً، وروايات، وقصصاً مصوَرة، وسيناريوهاتِ، ومسرحياتِ، حكيث حكاياتِ شتَى، للكبار والصَغار. حتَى أنَي ألَفث سلسلةَ قصص عن مراهقتنا المشتركة، كان لوي الشَخصيَة الرَئيسة فيها. وفي تلك القصص سمَيثه كامو. وصار الاسم عنواناً عامَاً دالاً على السلسلة. صار القراء من النَاشئة يسمَون كُتب السلسلة الكامويات، كامو، كاموي. وكان من الممكن أن يقولوا لوي، لويّ.

مكتبة ياسمين

8

في ذلك الصَباح المذكور إذن، ونحن في السيّارة التي تقلّنا إلى مكان الجولة، دار الحديث في حلمي. وقد طرح لوي سؤالاً مثيراً للاهتمام: هل ندرك حقّاً متى يبدأ الحلم؟

سألني: - مثلاً، حلمك أنت، متى بدأ في اعتقادك؟

كنت واثقاً من جوابي:

- حين انفجرت لمبة المصباح، فرأيت العسل يسيل على القماش! هذا شيءٌ لا يحدث في الواقع. لقد حلمت به. وأن نُفجّر لمبةٍ بالتّحديق فيها، أمرٌ مستحيل في الواقع!

قالت أمّي: - مستحيل، لاسيما وأنّه لا يوجد مصباحٌ في البهو!

استغرقت وقتاً قبل أن أدرك ما تقولُه.

- لا مصباح في البهو؟ ولكنّني رأيته قبل أن أنام!

قال والدي مصحّحاً، وهو يلقي إليّ بنظرة مبتهجة في مرآة السيّارة: - كلّا، لقد رأيته بعد أن نمت.

واصلت أمّي: - لقد تخلّينا عن المصباح ليلةَ بلغتَ الخامسة من عمرك. تذكّر، كانت تلك الهديّةَ التي طلبتها بمناسبة عيد ميلادك: «لم أعد رضيعاً، ما عدت أحتاج مصباحاً ساهراً! أزيلوه! عمري الآن خمس سنوات!»

خلص لوَي: - وإذن، حتّى المصباح قد حلمت به. مذهل...

- ممّا يعيدنا إلى سؤال البداية. متى بدأ حلمك بالفعل؟

هذه المرّة، فكّرت قبل أن أجيب.

- ربّما حين ذهب والدي إلى النوم. لم أعد أسمع

مكتبة ياسين

صوت التلفاز، فنمت.

سألني والدي: - أيّ تلفاز؟

صمت. هنا، في فركور، ليس لدينا تلفاز، لم يكن لدينا تلفاز هنا قطّ. التلفاز، هناك في باريس.

سأل لويس: وإذن؟

انطلاقاً من تلك اللّحظة صرت أسير بحذر:

- مون، مساء أمس، بينما أثرثر أنا ولو، ألم تصعدي لتطلبي منّا الهدوء؟

- أمس، كنت نائمةً يا صغيري. حتّى لو أتيتم بضوضاء العالم كلّها، ما كنتم لتوقظوني.

قال أبي مؤكّداً: - حاولت أن تقرأ قليلاً، لكنّها لم تكمل صفحتين حتّى نامت. نزعت عنها نظارتها، وأغلقت كتابها، وأطفأت النّور. أنا أيضاً كنت نعسان.

يقينياتي تتقوّض، يقيناً يقيناً. أشعر بنفسي كشخصيات الرّسوم المتحرّكة التي تواصل الرّكض، وإن انعدمت الأرض تحت أقدامها.

ألحّ لوي في السّؤال: - وإذن؟

وإذن، لم أعد متأكّداً من شيء.

- طمئني يا لوي، أنا وأنت تحدّثنا في موضوع النّور قبل أن ننام؟

- أجل. كنت تدّعي أنّ النور ماءٌ.

تدخّل والدي تدخّل العليم:

- وادّعاؤك صحيح، إن تعلّق الأمر بنور الجبال. بالنّور النّاتج عن كهرباء الطّاقة المائية عموماً. بوسعنا إذن أن نقول، مجازاً، إنّ النّور ماء.

قالت أمّي مقترحةً: - وما دمت قد استعملت كلمة مجاز، فاشرحها لهما.

لكن في النّقطة حيث كنتُ، ما عاد يهمّني أن

مكتبة ياسين

أتعلّم كلمةً جديدة، ولا أن أدرك صواب ادّعائي أو خطأه. غايةُ رغبتي أن أعرف متى بدأ الحلم. صرت الآن، أسير على درب ذاكرتي ضعداً، متلمّساً الأرض بأطراف قدميّ!

- في حديثنا حول الثور السّائل، لم توافقني الرّأي يا لو، أليس كذلك؟

- قلت لك إنّك ربّما لم تفهم جيّداً شرح المعلّم.

صحيح.

- واستدرتُ إلى الحائط، قائلاً: «سنرى هذا غداً، حين تصير في سنّي».

- قلتَ هذا؟

بدا لوي متفاجئاً حقّاً:

- لمَ قد أقول مثل هذا الكلام؟

ما كان ليقول مثل ذلك القول. إنّ الفرق بيننا ثمانية أشهر وليس يوماً واحداً. هو وُلد في أبريل، وأنا وُلدت في ديسمبر.

وهذه المرّة انفجر ضاحكاً:

- هاكم! هذه فكرة لا تخطر إلّا على حاكي قصص! صديقين حميمين، بينهما فرق يومٍ واحدٍ، وأكبرهما لا يكفّ عن إزعاج الآخر، قائلاً: «سترى غداً حين تصير في مثل سنّي!» ينبغي للمرء أن يكون حاكي قصص، ليستطيع تخيّل شيءٍ كهذا! سيصير كاتباً، أقول لكم! أراهن! أو سينمائيّاً، مثل صاحبك...

قالت أمّي: فيلّيني.

ثمّ سأل لوي سؤالاً آخر:

- لكن، أخبرنا، حين تدلّيت من النّافذة، ألم تندهش لرؤية مدينةٍ، بدلاً من منظرنا الطّبيعيّ المعتاد؟

مكتبة ياسين

9

كان لوي مصيباً. في كلّ صباحٍ تقريباً، حين أفتح أستار غرفتي في فركور، يواجهني منظرٌ طبيعيّ. وأيّ منظر! لا منزل، حتّى الأفق، لا شمالاً، ولا جنوباً. لا شيء سوى رتابة الغابة الدّاكنة، هناك، في البعيد، على سفح الجبل، وسياج حدائق القمح حولنا. وكذا انفجار الغيوم، شديدة البياض في السّماء الزّرقاء. الأشجار التي زرعها والديّ، في طفولتي المبكّرة، أينعت وصارت اليوم ترتفع منيفةً على المنزل. تتابغ أجيالنا من علٍ. هذه الأشجار هنا، جذوغ الباتولا الحريريّة، فروع الزّان الهائلة، التّنوب المنحني في ريح الشّمال، عناقيد أشجار السمن المضيئة نهاية شهر أغسطس، كلّ تلك الأشجار، وسط هذا الفراغ الشّامل، تحدّثني عن حياتي برمّتها. حتّى أخصبُ الكتّاب ذاكرةً، ليس يخترع الشّيء الكثير. أغلب لُقاي إنّما هي ذكريات تتحوّل إلى قصص. وتلك القصص أكثبها هنا، في الكوخ الذي بناه أبي لأمّي فيما مضى من الزّمن. كوخ من خشب. كوخ ابيضّ وشاب، كما شبتُ أنا، مع الزّمن. قاوم الكوخ برد الشّتاء الفظيع، وثقل الثلج السّاحق، وأمطار الرّبيع الجارفة، وأشدّ الأصياف حرّاً، وقاوم، على وجه الخصوص، الرّياح التي تهبّ هنا طيلة السّنة، والتي انتهى بها المطاف إلى أن أكسبته هيأته المحنيّة.

هبّت الرّيح سنواتٍ، وما يزال الكوخ قائماً، وأنا فيه. وما يزال ثمّة الكثير لأحكيه...

على سقف الباب كتب أبي اسم أمّي وتاريخ بنائه لأجلها. في ذلك التاريخ كنت أنا ولوي صغيرين جداً، لدرجة أنّنا كنّا نتظاهر بمساعدته.

مكتبة ياسين

10

لم تتفاجأ إذن، وأنت ترى مدينةً مكانَ منظرنا الطَبيعيَ هذا؟

كلّا، إنّما كانت المفاجأة من فيضان النّور، من الشقق التي تتقيّأ نوراً، والجدران التي تسيل به، ومن حساء الرّخام السائل في الشّوارع، وحاويات النّفايات التي يجرفها السّيل، وكلّ ذلك النّور الميّت السّائل في تلك المدينة التي لم أكن أعرفها، ومع ذلك كانت مألوفةً لدي.

- هل تستطيع أن تصفها لنا؟

- من تقصد؟

- المدينة.

أرادوا وصفاً دقيقاً ما أمكن. ملتقى طرق الكنيسة، طيّب، لكن هل كانت ثمّة كنيسة في هذا الملتقى؟ نعم. أيّ نوعٍ من الكنائس؟ كنيسة ببرج مدبّب، برج مسقوف، مثل الأبراج الشّائعة في الجبال، وخلفها مقبرة، مثل كنيسة شارع بانيوليه، في باريس، خلف شارع البيرينيه...

- كيف استطعت أن ترى المقبرة، إن كانت خلف الكنيسة؟

خمّنتها. قلت لنفسي إنّ الفيضان جانبَ المقبرة. قلت لنفسي، لو أنّ المدّ اجتاح المقبرة، لتوقّف الفيضان. ذاك أنّ السّرعة التي كسبها الفيضانُ في الشّوارع المنحدرة، على امتداد جدار المدينة، هو ما أحدث تلك الفوضى العظيمة في ملتقى الطّرق.

سألني لوي: - وأسماء الشّوارع؟

شارع الرّاحة وشارع السّلام. وعند زاوية شارع السّلام وشارعنا، دكّان تبغ تبرق إشارته الحمراء.

- واسم الدّكان؟

مكتبة ياسمين

- تبغ السَلام.

كلَما توالت أسئلتهم، استعدتُ التفاصيل التي لم أنتبه إليها في حينها.

قال لوي: - ربَما أنت تخترع هذه التفاصيل الآن.

أقسمت له أنَني لا أفعل، مع أنَ الأمر وارد. لاحقاً، وأنا أدوّن أحلامي (ظللت أدوّنها طيلة حياتي، بدءاً من ذلك اليوم)، لاحظتُ أنَ من يحكي حلمه يتخيَله بالقدر الذي يتذكَره به. أن تحكي الحلم يعني أن تحوّل الأحاسيس إلى حكاية. وبالمعنى الضيّق للعبارة، أنت «تصنع حكايات». لا بل يحدث للحالم، وهو داخل الحلم، أن يؤخذ بتفصيل من التَفاصيل، حتَى يقول لنفسه: لا ينبغي أن أغفل تدوينه صباحَ غدٍ!

قال أبي: - بالمناسبة، لم يكن في منزل جدّتك مدخنة قطّ. وإذن، لا قطعة من رخامٍ على المدخنة. ولا قدّيس سيباستيان تحوظه هالةٌ عظيمة.

- هل أنت متأكّد؟

- قدر يقيني من أنَ جدّتك هي أمّي! في أعياد الميلاد لم نكن نضع أحذيتَنا أمام مدخنة، إذ لم تكن ثمّة مدخنة. بل كنّا نضعها حول شجرة تنّوب.

- ولم يكن ثمّة تمثال للقدّيس سيباستيان؟

- لم يكن ثمّة تمثال للقدّيس سيباستيان.

مكتبة ياسين

11

أمَا الجولةُ، فلستُ أذكر عنها ذكرى دقيقةً. الحقّ أنّنا، خلال طفولتي، قمنا بالكثير من الجولات، حتّى اختلطت عليّ، وتبلبلت ذكراها. ثمّ إنّ أغلب ذكرياتي تتعلّق بلُوَي، وبالتالي هي، في معظمها، روائيةٌ، لا بل يمكن أن نقول إنّها ذكريات خَلمية: اليوم الذي صاد فيه لُوَي أربع سمكات تزوتة بيديه، وتناولناها على الغداء؛ اليوم الذي دخل فيه لُوَي حجرة مرموط، ثمّ خرج منه متأبّطا ساكنته، صائحاً «سوف أتبنّاها، هذه الصبيّة السَمينة» (النّتيجة: ثماني غرزات، ذاك أنّ الصبيّة السَمينة لم تكن مثفقة، وأسنانُها كانت أمواساً)؛ اليوم الذي أحسن فيه لُوَي التفاوض مع الحمار الذي اكتريناه لحمل متاعنا، حتّى اقتنع الحمار بكلامه وعاد إلى صاحبه بمفرده؛ اليوم الذي أنقذ فيه لُوَي صبيّةً علقت في مغارةٍ، بينما والداها اللّذان منعهما حجمهما من اقتحام المغارة، يصرخانِ صراخ الموت؛ اليوم الذي اصطدمت فيه درّاجةُ لوي بجدارٍ قصيرٍ، فواصل قسماً من الجولةِ طائراً (وهذا مشهدٌ استعدتُه في كتابٍ من سليلة كامو)؛ اليوم الذي أنقذ فيه لوَي عقابَ صرارةٍ من عصبةِ غربانٍ، وأمضى بقيّة العطلة يصطاد الثعابين لتغذيته؛ اليوم الذي نزل فيه لوَي منحدر جبل إغويّ من دون حبلٍ....

اليوم الذي لم يأت فيه لُوَي...

اليوم الذي قضيت فيه أوّل مرّة العطلة بعيداً عن والديّ.

اليوم الذي صرنا فيه راشدين...

اليوم الذي صرنا فيه مسنّين...

وهذا اليوم الذي أكتب فيه هذه الصّفحات في

مكتبة ياسين

الكوخ المائل لأنّ ابنتي، أليس، عثرت على الدّفتر الذي أهدتنيه أمّي، عقب عودتنا من تلك الجولة، كي أدوّن فيه أحلامي.

مكتبة ياسين

12

ثمَ إنَني قد حلمت، تلك اللَيلة. وكان ذلك أوَل حلمٍ أدوِنه في هذا الدَفتر الأوَل. لا بدَ أنَ والدي قد شرح لنا مبدأ الكهرباء –أي إنَ قوامها موجات كهرومغناطيسية، وإنَها تنتقل بسرعة ثلاثمائة ألف كيلومتر في الثانية-، لأنَني قضيت قسماً من ليلتي ألاحقُ لوَي داخل سلك كهربائي طوله ثلاثمائة وخمس وستَون مرَةً محيط الأرض، وكنا نركض بسرعةِ (ثلاثمائة ألف كيلومتر في الثانية) حتَى أنَ الأرض اشتعلت شيئاً فشيئاً، وانتهى بها المطاف تلتمع كلمبةِ مصباحٍ ليليَ في سماءٍ بلا نجوم.

مكتبة ياسين

13

كبرنا إذن، أنا ولَوَي، وتوفي والدانا، وولد لنا أطفالٌ، ثمّ وُلد للأطفال أطفالٌ (بينما أكتب هذه الأسطر في الكوخ المائل، يتناهى إلي جدال التوأمتين). ظللت طيلة حياتي وفيّاً للمنزل في فيركور، وقد أصبح موضعاً لاحتشاد القبيلة، وإطاراً لبعضٍ من رواياتي.

كلّما زارني هنا لوَي (دائماً ما يأتي فجأةً، وتكون مفاجأةً سعيدة)، يفرض علينا الأطفالُ طقساً: أن نقضي اللّيلة معاً، أنا وهو، في غرفة طفولتنا، تلك التي انطلق منها هذا الحكي، والتي صارت على الدّوام مأوى لأصغر الأطفال، وأصغرهم اليومَ كيلا ونورا. أن نقضي معاً ليلةً في غرفة الطّفولة، كي نمنح الفرصة لجزءٍ جديدٍ من سلسلة كامو، أن ينبثق. وذاك ما قد حصل من قبل: وكالة بابل، وهروب كامو، كلاهما أبصر النّور في هذه الغرفة، انطلاقاً من أحاديثنا. نقضي إذن، على الأقلّ، ليلةً في السّنة، هذا أمر.

أمرّ أتانا اليوم من التوأمتين، في نفس السّاعة التي نرسلهما فيها إلى فراشهما، وبالكلمات نفسها التي نستعملها:

- هي إلى الفراش أيّها العجوزان، حانت ساعة النّوم!

مكتبة ياسين

14

عمّ يتحدّث الأطفال في غرفهم؟ عن والديهم. عمّ يتحدّث الآباء؟ عن أطفالهم. عمّ يتحدّث الأجداد؟ عن صحّتهم.

تناولنا القضيّة، على عجلٍ، أنا ولَوي:

- كيف حالك؟

- بخير. تضعضعت قليلاً، لكن لم ينكسر فيّ شيء. وأنت؟ كيف حالك؟

- ما زالت الآلة تعمل قليلاً.

ثمّ انتقلنا إلى مواضيع أخرى.

قلت: - أكتب جزءاً جديداً من مغامرات كامو.

سألني لَوي: - ويعرف الأطفال ذلك؟

- ليس بعد.

- وهذا أفضل. سيظنّون أنّ الكتاب ثمرة هذه اللّيلة.

ثمّ تحدّثنا عن الأطفال، عن زوجتينا، عن هؤلاء وعن أولئك، عن الجميع؛ عن مين وفتوحاتها في الطبّ الياباني، وعن شارلوت وسياسة مارسيليا الثقافية، وعن فانسون وقانون الهجرة، وعن لقاء كريستوفو بامرأةٍ تحمل اسم مورونتين، وإعجاب العشيرة بها، وعن لقاء كارول برسّامٍ ذي عينَين حادّتين في رأس دائريّ، وعن كاهينا وحيويّة توأمتيها، وعن ملحمة جيل الصينيّة، وعن لويك وبناء مصحّته، وعن مانو وجولاتها المسرحيّة، وعن كيوكو وعلاقتها بموبسان، وعن تجاوز أليكس عقدة مثليّته، وعن رولف الذي ما يزال مشطوراً بين كيبيك والهند والمكسيك، وعن أحجيات فانشون التي لا تقبل التقليد، وعن موسيقى أليس التي نتابع أنا ولوي أبحاثها في الالات، وعن انا التي ما

مكتبة ياسين

تزال تقرأ أكثر فأكثر، فتزيدنا تبصّراً، وأسئلة لول الشّديدة المباشرة، وقد سألنا قبيل قليلٍ، أنا ولوي، عن شعورنا ونحن نشيخ:

- بماذا تشعرون أنتم المسنّون؟

منذ أن صار لول قادراً على الكلام، يعيشُ حياةً استقصائيةً عنيدةً عناداً هادئاً. أحبُّ كثيراً مثابرته في الاستكشاف.

سألته:

- ما الذي نشعر به، من أيّ ناحية؟

- من ناحية الشّيخوخة.

الشّيخوخة؟ ما معنى أن نشيخ...

كان لوي المبادر إلى الجواب:

- أن تشيخ هو أن تشعر بالسّنوات تمرُّ كالأسابيع، بينما الأسابيع بالنّسبة إليك أنت سنوات.

وأجبت أنا:

- هو أن تشعر بثقل السّماء.

علّقت أليس: جوابُ مصابٍ بفرطِ الحركة، في مقابل جوابٍ متأمّلٍ.

وأضاف كريستوفو: - أو حدسٌ رياضيٌّ في مقابل فرضيةٍ فيزيائيّ: فمن جهةٍ، مرور الزمن منظوراً إليه كتقدّمٍ خوارزميّ، ومن جهةٍ أخرى، تردّي الجسد معاشاً كازديادٍ في قوّةِ الجاذبية.

وتلكم هي اللّحظة التي انبثقت فيها التوأمتان من المطبخ، وقالتا بصوتٍ واحدٍ، وبصرامة أمٍّ مستقبليةٍ:

- هي إلى الفراش أيّها العجوزان، حانت ساعة النّوم!

مكتبة ياسمين

15

لمّا فرغنا من فحص العشيرة، انتقلنا أنا ولؤي إلى موضوعٍ آخر:

- وإذن، ما موضوع هذا الجزء الجديد من كامو؟

- تدري، فيضان النُّور، أيّام كنّا صغاراً....

كلّا، لؤي لا يدري. لم يعد يدري. لا يتذكّر أول أحلامي المدوّنة. من بين أحاديثنا اللّيلية الكثيرة، لا تثير فيه قصّةُ النُّور السّائل أيّ ذكرى. بالمقابل، يذكر إشارة أمّي إلى فيلَيني حين نصحَتني بأن أدوّن أحلامي.

قال: - كانت تحبُّ عزيزها فيلَيني. كان والدك، نصف فخورٍ بها، نصف مستاء، تفهمُ قصدي... أمّا فيلَيني فكان معجباً برسوم أمّك، رسوم الفساتين والقبّعات. كان قد قال لها جملةً من قبيل: «يبدو أنّ قبّعاتك تتخيّل الوجوه؛ وثيابك تداعب خيالاتِ أجساد أحلامي». كانت ذلك في الحقبة التي قرّرت فيها أن تُلبِس النّساء السّمينات ثياباً جميلة.

فيما يتعلّق بالطّفولة، دائماً ما كان لُؤي ذاكرتي الحيّة. وفي ذلك المساء قال لي إنّه ما يزال يحتفظ بذكرى جيّدة لنزهتنا في مصنع الطّاقة الكهرمائية.

- ذلك هو اليوم الذي علّمنا فيه والدك الغوص تحت الماء، ألا تذكر؟ كان يقول إنّها طريقةٌ مثلى للتخلّص من الجاذبيّة.

السباحة تحت الماء... أجل... ما زلت أحتفظ بذكرى قويّة عن الإحساس: التخلّص من الجاذبيّة، حين دفعني أبي إلى الماء بقفّيتي الأكسجين وبذلة الغطس، ظهري إلى البحيرة وزعانف قدميّ في الهواء («مثل الغوّاصين المحترفين يا بنيّ»): تحت الماء كان وزني عدماً. كنت أحلّق. إحساسٌ جديد

مكتبة ياسين

وخالدٌ في آنٍ، كأنّما أكتشف أنّ في طبيعتي ملكة الطيران، وأنّ المشي ما هو، قياساً إلى الطيران، إلّا ضرورةٌ عرضيّةٌ، بل حجّةٌ يتعلّلُ بها النّوع. قلت لنفسي من فورها، إنّي سأقضي بقيّة حياتي تحت الماء.

قلت للوّي: - ومع ذلك، لم أغطس بعدها تقريباً ولا مرّة. بل ربّما غطست مرّةً أو مرّتين.

- ذاك طبعك على الدّوام. لقد ربّيت نفسك على أن تتذكّر الإحساس، بدلاً من أن تكرّره. ذلك ربّما ما يجعل منك كاتباً. أمّا أنا فيلزمني أن أخوض التجربة كلّ يومٍ.

بدأ النّعاس يرخي صوته.

أضاف: ولكن ذلك لا يمنع من أنّ ثقل السّماء سيكون أخفّ على كتفيك، لو أنّك كنت تعيش تحت الماء...

وتلك هي اللّحظة التي وُلد فيها المشروع.

قال لوّي مقترحاً: -ما رأيك لو ذهبنا غداً؟ بدون الأولاد. هيّا، لنذهب! لنعد إلى السدّ الكبير. بعد خمسةٍ وخمسين عاماً، تصوّرا نذهب معاً، فنكتري المعدّات: بذلة الغطس، الزعانف، قناني الأكسجين، ونتحرّر من الجاذبيّة...

كالعادة مع لوّي، يكفي أن نقول الشّيء، لننتقلَ إلى التّنفيذ.

مكتبة ياسمين

III

مسألةُ الدّيكور

أدنو منها بعيني. مكتوب عليها «Be Careful». لكن ممن، مما ينبغي أن أحذر؟

فيديريكو فيليني

1991 Il Grifo,

مكتبة ياسين

16

بالطبع، تغيّر المكان كثيراً عمّا كان عليه أيّام طفولتنا... صارت تملؤه اليوم البناياتُ. فنادق، ومسابح، طوافات، ومحطات تزلّج مائي، وحول الضفاف التي تحوط الجبال، شيّدت طريقٌ مسفلتة مزدوجةٌ.

قال لوَي: - كانت طريقاً للبغال، أيّام طفولتنا.

صار مجمع الماءِ اليوم بحيرةً كبيرةً، وتحوّل مقرّ المصنع إلى مطعمٍ يطلّ على البحيرة، والسدُّ شاطئاً مرصوفاً بالخشب، في شكل منحنى شاسعٍ تملؤه ألواح الغطس، حيث يستعرضُ جسد الشّباب الموشوم. والحقُّ إنّني منذ مدّةٍ لم أرَ جسد الشّباب عارياً. قلت لنفسي ينبغي أن أنبّه لول إلى هذا الأثر الدّال على الشّيخوخة: أن يصير المرء جاهلاً بجسد الشّباب! وأن أسأله عن غاية هذه الوشوم. جميعهم موشمون، كأنّهم جسدٌ واحد. ما الغاية من هذه الرّغبة المتماثلة في التفرّد؟

الحقُّ أنّي قضيتُ حياتي كلّها أسائل الآخرين: أسأل والديّ عن أسماء الأشياء، والنباتات والحيوانات، وأسألُ الكتب قليلاً من المعنى، وأسأل الجيل الجديد عن أسباب عاداتهم...

مكتبة ياسين

17

تتبحّر الفكرُ كلّها بينما يدفأ الماءُ بين جلدي وبذلة الغطس. صفعةُ باردة، ثمّ ذاك الإحساس الذي ينتابك، إحساس أنّك تجعل بحيرةً برمّتها في حرارة جسمك. ذلكم بالفعل ما شعرت به أوّل مرّةٍ مع والدي: لطمةُ البحيرة المجمّدة، ثمّ اكتشاف متعةٍ مشيميّة مُثلى، تُصاحبها حركةٌ في كلّ اتّجاه. تحرّرْ بالفعل من الجاذبية! كيف حرمت نفسي من هذه المتعة طيلة حياتي؟ كيف قايضت جسد الملاك بذكراه؟ لأنّ السّباح لا يتحرّك في الماء حركة سمكةٍ أو طيرٍ، بل حركة ملاك... مفاجأةٌ أن تشعر بانعدام وزنك! يا لهذه اللّقيا مع جسدي المثال! وكذلك انعدام الديمومة. يا لأبديّة الأعماق! جعلت ألعبُ كطفلٍ: أسابق فقاعات الماء، أمسك كاحليْ بيديّ، ألهو وأمرح، كما في المرّة الأولى. ولَوْي يتابعني ناقراً على جبينه بسبّابته. أحسبه كان يضحك. لكي أبتسم له، نزعت عن وجهي القناع، كما نفعل عادةً لإفراغه من مائه، فانتبهت إلى أنّني لم أنسَ أيضاً هذه الحركة. قلت لنفسي إنّني لم أنسَ شيئاً، حتّى أنّني كنت لأصير غوّاصاً لو أنّني واضبت على الغوص. ما زلت أحتفظ بكلّ الحركات، استعدت الغرائز كلها فوراً، تلقائياً كأنّما أقود درّاجةً. أريحيةُ مُثلى. حريّةُ الملاك. أبديّةٌ بلا جاذبية. وداعاً يا ثقل السّنين. عودٌ إلى طاقة الطّفولة التي لا تنضب! كنت لأواصل لهوي الطّفولي إلى الأبد، لولا أنّ لَوْي ربّت على كتفي بيده، وأشار لي بأن أتبعه. وهذه المرّة غُصنا غوصاً لا رجعة فيه.

مكتبة ياسين

18

لم أتساءل إلى أيّ عمقٍ يسحبني صديقي القديم، ولا تساءلتُ عمّا إذا كنت لأحترم تعليمات تخفيف الضَغط أثناء صعودي. غصتُ كأنّما انعدم العمقُ والسَطح، غصتُ في غنضري الطَبيعيّ، كأنّما بتُّ الآن أحيا في لون وصحبة الضّوء. تبعت لُوي تحت الماء كما لم أتبعه قطُّ طيلة أيّام صبانا الصّاخبة. لم أكن أندفع بقوّة عضلاتي، وإنّما رغبتي وحدها تدفعني، رغبتي المطلقة في أن أكون هنا، وسط عنصري الطّبيعيّ المستعاد، طارحاً عن نفسي كلّ السّنوات وكلّ المشاريع، [حرّاً] كهذه الأسماك التي لا تجفل منّي، كهذه الأسراب من سمك الشّوب التي أصاحبها، كهذا السّلطعون السّاكن الذي أستطيع أن أحمله بين ذراعيّ.... ألّا أكون شيئاً سوى إحساسي بأنّني كائن، وأن أغتبط بهذه الصياغات المرحة، كأنّما أكتب تحت الماء، بلا قلمٍ، ولا ورقٍ، فقط كلماتي القابلة للتحلّل.

وما زلت غارقاً في هذياناتي تحت الماء، إلى أن أشار لي لوَي يريني شيئاً ما. إصبعه لحوح.

مكتبة ياسين

19

كان سطحاً رمادياً يتماوج في عذوبة في أشعة الشَمس الغارقة. لم أميّزه في البداية. أكثر ما أثارني هو سكوته. (سكون الأشياء المغمورة...) بينما يواصل لُوي استكشافه في العمق، دنوتُ أنا، ووضعت يدي على أردواز؛ قطعة أردواز كبيرة على سقفِ ينزل إلى الأسفل متسعاً، ويرتفع إلى الأعلى مدبّباً. استغرقت ثواني لأتعرّف على ما أراه؛ أعجوبةُ أن تجد هذا الشَيء تحت الماء! سقف كنيسة... ناقوس! وعلى قمّته صليبٌ ما يزال فيه، صدئاً، سلك مقاومِ الصواعقِ! أرخيت جسدي يصعد إلى السَطح، أعبُ الهواء عبّاً لاكسب مزيداً من الارتفاع، وقد استعادت رئتيَ غريزياً وظيفة الضابورة(2).

بضعة أمتار فوق الصَليب (متران أو ثلاثة على أكثر تقدير) يتماوج سطح البركة، نهاية الماء، غطاءُ السَماء. حول الناقوس يلفُ شبابٌ موشومون. يغوصون كطوربيدات، ثمّ ترتفع أجسادهم المتلألئة إلى السَطح كقطع فلّين. أتخيّلهم، ينبثقون في السَطح، مدفوعين بطاقةِ شبابهم، متهيّئين لأن يغوصوا مجدداً على الفور. آخرون، ممّن يحملون مثلي قناني هواء مضغوطٍ، كانوا يتسلّلون مثلي إلى الكنيسة عبر فتحات الناقوس، إذ لاحظوا مثلي أنّ الأجراس غير موجودة، فيلفُون مثلي في درجٍ حلزونيّ ضيّق، يُفضي بنا بابُه المطحلبُ إلى بهو كنيسةٍ واسعٍ، لا مذبح فيه ولا كراسي. وإذ أُرجع التفكير اليوم، أتذكّر أنّي ما إن زالت دهشتي الأولى حتى انتفى العجبُ؛ إذ إنّ ما أدهشني ليس أن نسبح داخل كنيسةٍ مهجورة (فالحال أنّ السدود الكبرى لا تشيّد دون خسائر)، بل مبعث دهشتي

مكتبة ياسين

هو أنَ الموشومين كانوا يلتقطون فيها صوراً! بجوَالاتهم! أن يُضحَى بكنيسة من الكنائس الكثيرة التي امتلأت بها فرنسا في القرن التَاسع عشر (وربَما ضُحي أيضاً بالقرية التي كانت تضمَ الكنيسة)، ذاك أمرٌ لم يثر دهشتي، بقدر ما أدهشني اكتشاف الوشم الكونيَ والهاتف الذكيَ المقاوم للماء. هذه هي الشَيخوخة. على الرَغم ممَا راكمناه من تجارب، إلَا أنَنا، نحن المسئين -كما يقول لول-، لا نستطيع أبداً التحكَم في ذهولنا.

سبحت في اتَجاه الشرفة حيث ينتظرني لُوَي، والتقينا عند ساحة الكنيسة.

مكتبة ياسمين

20

إن استثنينا برج الجرس الذي خلثه من حجرٍ لوحي، وإذا به من أردواز، فإنّ الكنيسة كانت مطابقةً تمام المطابقة لتلك التي حلمت بها في طفولتي، يحدّها من الجانبين زقاقان منحدران، ويُفضي فناؤها الأماميّ إلى ساحةٍ حيث ما يزال هيكلُ عمود إنارةٍ منتصباً رغم رقبته المكسورة.

لم تدوم ذكريات أحلامي طويلاً، بينما لا أكاد أذكر من حياتي النّهارية شيئاً؟ الأسماء، والوجوه، والعناوين، والمواعيد، وتواريخ الميلاد، وأرقام الهواتف، وكلمات السرّ، وعناوين الروايات أو الأفلام، والمشاريع والمواعيد، منذ الأزل وأنا أنسى كلّ ما يمكنه أن ينفعني، بينما تظلّ أحلامي، حتّى الضّاربة في القدم، طوعَ ذاكرتي على الدّوام. مصاباً منذ الولادة بمرض النّسيان، غير أنّني أصنع أحلاماً لا تصدأ. تكفيني أهونُ الأشياء لأستعيد أحلامي. (وإن كانت كنيسةٌ مغمورةٌ ببركة جبلٍ ليست بالشّيء الهيّن). ما إن يستثيرها تفصيلٌ، حتّى تصعد أحلامي إلى سطح ذاكرتي عنيدةً، عنادَ ورق الحائط الذي كنّا نعجز، أيّام الطّفولة، عن انتزاعه من ذاكرتنا.

أشار لي لُوَي أن أتبعه. كان لديه شيءٌ يريني إيّاه. سبحت صوبه، بين الشّباب الموشومين الذين كانوا يلفّون حول الكنيسة ضربين بزعانفهم ضرباتٍ خفيفة، وقد قوّسوا ظهورهم قليلاً، وأرخوا أذرعهم على امتداد أجسادهم التي لا تشوبها شائبة. أغلبهم عشّاقٌ. هذا يُري تلك هذا الشّيء. وتلك، في تسارعٍ مفاجئ، تسحبُ هذا صوب ذلك الشّيء. ولا يكاد انتباههم يستقرّ على الشّيء أكثر من ثواني معدودات؛ ساكنين وسراعاً كالأسماك، ما يلبثون

مكتبة ياسين

أن يحيدوا بغتةً عن الشَيء، باحثين عن محلٍ أخر للإعجاب. كأنما هم يتخذون النظر لعبةً.

حين بلغت إلى لُؤي، أراني لوحة الشارع وقد كشط عنها الظحالب لتؤه. شارع الزاحة، أجل. ومن الجانب الآخر للكنيسة، بلا ريب، شارع السلام. وعلى امتداد الشَارعين المنحدرين، سويز المقبرة، وفي المقبرة نفسها القبوز، فارغةً، وبجانب كلّ قبرٍ محفورٍ شاهدثه. قلت لنفسي، لقد نقلوا رفات الموتى قبل أن يغرقوا المقبرة. وحدهم الموتى نجوا من هذا الطوفان.

مكتبة ياسين

21

خلُصت إلى أنّ لُوي قد كذب عليّ. هو ما يزال يحتفظ بذكرى واضحة عن حلم طفولتي، ولم يستدرجني إلى هنا صدفةً. بل كان على علمٍ بوجود هذا النُجع الغارق. ومنذ مدّةٍ طويلةٍ وهو يعدّ للأمر العدّة؛ اختار اليوم، واستأجر المعدّات، وحجز ساعة الغطس... وهذا هو لُوي بشحمة ولحمه. في نظره، لا قيمة للحياة ما لم تكن مفاجئة. وأيُّ ذهولٍ بعد هذا؟ أيّ ذهولٍ أبلغ من أن يغوص بي وأنا في كامل وعيي، داخل الإطار الواقعي لحلمٍ حلمته أيّام طفولتنا المشتركة؟ أن يهبني، بعد نصفِ قرنٍ، هذه القرية المضحّى بها قرباناً لمتطلّبات الكهرباء الجبليّة، والمحوّلة إلى ديزني لاند تحت الماء. فتنةٌ مؤكّدة.

على أنّ ذلك -قلت لنفسي- لن يمنع لوي من أن يرغي ويزبد ضدّ حضارتنا المحتضرة، محتفلاً بدنوّ زوالها. أحفظ خطاباته في الموضوع: «إنّ جوهر ترفيهنا هو فرجتُنا على أنفسنا ونحن نحتضر. أغرقُ قريةً، جاعلاً منها حديقة ترفيه، أنتهك التحدّيات المناخية لأصنع أعمالاً فنيّةً حول الكوارث، الحرب دوماً وقودُ الخيال، نطبخ أمعاءنا في مرق الترفيه، وكلّ ذلك، بالطّبع، على حساب ذاكرتنا ويقظتنا. آه يا ذاكرتنا التقيّة! آه يا يقظتنا البريئة من كلّ عيب!».

لا فائدة من معارضته باكتشاف المضادّات الحيويّة، ونهاية الأوبئة، والانفجار الديموغرافي، وضمان الغذاء لكلّ البشر، أو أغلبهم، والتواصل الكوني، وطول أمد الحياة: «طيب، طيب! سنكون عدداً لا يحصى من المسنّين الذي يعلمون أنّهم سيموتون شبعانين. طيب!».

تلكم هي الخطب التي يلقيها علينا كلّما بلغ من

مكتبة ياسين

اليأس منتهاه.

22

وأبي؟ أين هو من كلّ هذا؟ أكان يدري بوجود هذه القرية الغارقة يوم نظّم «جولته العملاقة»؟ إن كان الجواب نعم، لم تُراه لم يجعلنا نغطس فوق بوج النّاقوس، مثلما يفعل هؤلاء الشّباب الموشومون اليوم؟ هل امتنع عن الأمر في آخر لحظة؟ هل خشي وقوع حادث، إذ لم يكن المكان مهيّأ ليستقبل حشداً من البشر، كما هو اليوم؟ هل شاور أمَي؟ على أيّ حالٍ، كانت تلك أوّل مرّةٍ نجرّبُ فيها الغطس. أكان في الأمر مجازفة؟ هل أجلَ الأمر لغطس آخر؟ اللّهم إلّا إن كان قد غطس بنا في مكان أبعد، إذ أخطأ موقع القرية المضبوط تحت الماء (قد استعمل على الأرجح في تحديد مكانه، خريطةً طرقيّة قديمة)؟ فظللنا نبحث عن أطلنطس سدىً، سائرين كأسماك يافعةٍ في إثر السّمكة الكبيرة المرشدة، أقصد أبي...

مكتبة ياسين

23

ورغم ذلك، رغم ذلك، إن كان والديّ يعرفان إلى أين يقودانني، فما الذي فكّرا به بينما أقصُ عليهما حلمي؟ لقد ظلّا يصغيان إليّ صامتين. طيلة الرّحلة ظلّا متواطئين، في صمتٍ، على كتمان وجهتنا. لكن، ما كانا يظنّان في ولدهما؟ أهذا الصبيُ عزافٌ؟ أأنجبنا طفلاً يقرأ الغيب؟ لأنّ القرية التي كنّا نبحر صوبها كانت بالفعل قد أُغمرت بنورٍ سائل! ما كان يفرُه سيلُ السيّارات العمياء والمثقلة، في حلمي، هو حقّاً تسونامي من النّور الميت! حلمٌ واقعيّ، ذو حمولةٍ مجازية هائلة، ذلكم ما قصّه عليهما ولدهما، بينما يقودانه إلى المكان نفسه حيث جرت أحداث الحلم. إن لم يكونا قد صنّفاني يومها في فئة العباقرة، فعلى الأقلّ سيدرجانني في خانة الظّواهر العجيبة! حالمٌ الحالمين! أليس يجدر بنا أن نخبر فيليني بهذا؟ ما رأيك يا عزيزي؟ ألا ترى أنّ علينا تقديم الصبيّ لفيديريكو؟ خاصّةً وأنّه منذورٌ لأن يكون كاتباً! إنّ فيديريكو رجلٌ دمثٌ وصريحٌ، سوف يتبنّاه، وسيعرف كيف يوجّهه، ببشاشته وابتسامته المعهودتين... ثمّ، إنّ فيديريكو خبيرٌ بالأحلام. لا يدوّن أحلامه ويرسمها فحسب، بل يتحدّث في شأنها مع البروفيسور برنهارت. ليس الحلم، عند فيديريكو، مجرّد نافلةٍ، بل هو يعلم أنّ الحلم هو الحياة. بلى، أنت محقّةٌ، لكن كلّا، لن نزعج فيليني بأمور الصبيّ. إنّه رجلٌ كثير المشاغل، يطرقُه النّاس من كلّ مكانٍ. هل تتصوّرين عدد النّاس الذين يعسكرون أمام مقرّه؟ كلّ معجبٍ بفيليني إلّا ويتمنّى لقاء فيديريكو. لنتركه وشأنه إذن.! لقد أصبت حظّ الاشتغال معه... فلنترك الأمور تسير من تلقاء نفسها. وربّما نعود إلى المسألة لاحقاً، إن

مكتبة ياسين

تأكّدت مواهب الصبيّ...

الخلاصة، لم أقابل سينمائيّ المفضّل، فيديريكو فيليني، قطّ. رأيت جميع أفلامه، وكرّرت مشاهدتها أكثر من عشرين مرّة، لكنّني لم أقابل شخصه قطّ. ويوم نُعي إليّ، شعرت بذنبٍ غريب. حسرةُ ذهابٍ، إن جاز لي التعبير. كأنّما ندمت لأنّني تخلّيت عن الرّجل الذي فتح لي أبواب مغارة الصور، إذ لم أعد أهتم به منذ توقّف عن إخراج الأفلام، وبالتالي كفّ عنّي سحره. أن تستمتع بالمرء ثمّ تخونه، ذلكم ما فعلته بفيليني. كلّا! بلى! قلت لك: كلّا. تذكّر، إنّ أمّك لم تقدّمك قطّ لفيليني. لم تعرفه أبداً. فما من داعٍ لأن تظلّ تطوف بكفنه طواف يهوذا بالجلجثة!

مكتبة ياسين

24

موجةٌ من شجنٍ باتت ترافقني الآن في رحلتي، مع لُؤي، تحت الماء. كان من الممكن أن التقي بفيديريكو فيليني! كنت لأحضر تحوُّل أحلامه إلى أفلام. كنتُ لأسبح في مياه شينيتشيتا متعدّدة الألوان. أحلّق في استديو 5 الشَهير، صحبة ابتسامة ماسترويواني المريبة والوسنانة... صوب أنيتا إكبيرغ، قنديل البحر الفاتنة... صوب ماغالي نويل، ثعبان البحر المسالمة... أن أنزلق كحنكليس بين ثديي ماريا أنتونييتا بيلوزي، بائعة التبغ الشَهيرة في فيلم أماركورد. كنتُ لأرفع معنويات فيديريكو حين ما عاد يخرج أفلاماً... ولاسيما، حين ما عاد يحلم، في نهاية حياته بسبب الشَيخوخة (التي أعاني منها أنا أيضاً اليوم)، وبسبب المنوّمات. ذلكم ما كنت لأفعله، لو أنّ أمّي، فقط، لاقتني بفيديريكو فيليني!

وبدلاً من ذلك، ها أنا ذا ألعبُ دور السَمكة في حوضٍ للسيّاح، يحيط بي شبابٌ موشومون، أقطع ذراعي أنَ لا أحد منهم يدري من يكون فيديريكو فيليني، ولا حتّى سمع بوجوده.

- لول، يا عزيزي لول، بيني وبينك، أن يشيخ المرءُ هو أن يدرك أنّه لم يعد ثمّة من يعرف فيديريكو فيليني.

أجابني لول بحسَ الثّناظر الفطريّ لديه: - وهو أيضاً أن يجهل أسماء المخرجين الشَباب اليوم.

مكتبة ياسين

25

ثمّ انتابتني رغبةٌ، وإذ لبَيتُها انتهت جولتُنا تحت الماء. ينبغي أن أقول، نهايةٌ مباغتة. رغبة أن أشبع فضولي حتّى أتخمه. قلت لنفسي، إنّ لُوي قد أهداني هديّةً رائعة. ليس في مستطاع أيّ كان زيارة ديكورٍ من ديكورات أحلامه، أن يغوص، وهو في كامل وعيه، في واقع الحلم. عليّ إذن أن أغتنم الفرصة وأضيف مساهمتي في علم الأحلام. لنفحص عن كثبٍ مكوّنات حلمي الطّفولي، ما دامت الظّروف قد سمحت لي اليوم بأن أقف على جانبه الواقعي. لنزِ. لنحفر. علينا بالتّفاصيل. لنفحصها فحصاً دقيقاً، كما يفحص شرطيٌّ مسرح جريمة. ولنبدأ بتشريحٍ منهجيّ للدّيكور:

شارع الرّاحة، وشارع السّلام، حسناً، إنّ الشّارعين هنا يحملان نفس اسميهما في حلمي. طيّب.

كلاهما ينحدر انحداراً شديداً، وكلاهما يفضي إلى فناء الكنيسة، أجل.

الكنيسة ملاصقة للمقبرة، طيب.

الفيضان أستثنى الموتى، صحيح.

وسط السّاحة، عمود النّور. مضبوط؟

عنقه مكسورٌ، بالفعل.

لقد حلمت إذن في طفولتي بفيضانٍ يغمر قريةً لها وجودٌ فعليّ (والحقّ أنّي كنت أحسبها مدينة)، قريةً منحني لوي إمكان زيارتها اليوم، ونحن مسنّين، هذه هي الوقائع. كيف أمكن لهذه الوقائع أن تكون؟ سنفحص ذلك لاحقاً. أمّا الآن، فلنكتف بالنّظر، فلننظر.

تلكم كانت حالتي الذّهنية.

تركت لُوي يمضي في طريقه، ونزلتُ شارع

مكتبة ياسين

السَلام، حتّى دكّان التَبغ عند زاويته. أقول نزلتُ، لكن الواقع، كان الشَارع هو النَازل. أمّا أنا، فمضيتُ إلى الدّكان في خطٍّ مستقيمٍ، كسهمٍ أُطلق في السَماء. لا ريب، إنّه هو نفسه دكان التَبغ الذي رأيتُه في حلمي، والذي كانت علامته الحمراء تضيءُ، في حلمي، متلألئة. بالطّبع، لا أثر للعلامة الحمراء. لم يبق منها إلّا خردة سلكٍ مسمّرة إلى الجدار. صبيّةٌ ترتدي مايوه مشغاً، وزعنفتين متلألئتين، تدور حول السّلك الصدئ كسمكة حنكليس. قلت لنفسي، قد تجرح نفسها. ينبغي تغطية هذه البقايا المعدنية بالبوليستارين، أو أيّ مادة ليّنة صناعية تقاوم الزّمن والماء. وإلّا، فأبشر بالإصاباتِ والقضايا. سيرافع فانسون عن الصبيّة أو عن مكتب السّياحة المسؤول عن الموقع. إلى البوليستارين سحقاً! كذلك واقي الصواعق على قمّة الكنيسةِ خطِرٌ. قد يعلق فيه شابٌّ من الشّباب الموشومين. سيحدث ذلك. بلا ريب. مسألةُ احتمالاتٍ لا أقلّ ولا أكثر، بتعبير كريستوفو. معجزةٌ أنّ ذلك لم يقع بعد. ذات صباحٍ سيغوص صبيّ أعمق من اللازم، وكَويك. (لاحِظْ، لُغتنا تفتقر إلى اسم الصّوت الدّال على الخوزقة).

بينما أنا غارق في تلك التأمّلات، لمحتُ، في الجهة المقابلة من الشّارع، النّافذة المفتوحة التي منها تركت المنزل، في حلم الطّفولة. (وكما هو معلوم، لم يكن المنزل منزلنا، ولا هذا الشّارع شارعنا، ولا هذه القريةُ قريتنا). قلت لنفسي: أعرف هذا الدّيكور المغمور بالماء، من غير أن أكون قد رأيته من قبل، هذه هي الوضعية. وتلك الوضعية -أي نافذة مفتوحة على الرّصيف المقابل، في الطّابق الأرضيّ من منزلٍ موجودٍ وجوداً فعلياً- ألقت بي في حالٍ من الفضول ليس له نظير. لم تنتبني قطُّ هذه الدّرجة من حبّ الاستطلاع. رغبةٌ حارقة في

مكتبة ياسين

أن أفحص. تطلَبَ للحقيقة لا مثيل له. أن أقتحم منزل طفولتي افتحاماً ناجزاً! من النافذة التي خرجت منها منذ خمسين سنةً! من مئا قيض له أن يجرَب مثل هذه الغواية؟ ومن مئا كان ليقاومها؟ إنَه فضول الطَفل الموشك أن يولد! إنَها راحةُ المحتضر المباغتةُ، إذ ينفتح أمامه بابُ الثور! تلكم كانت حالة ذهني أمام تلك النافذة المشرعة. عبرت بالي خطفاً خاطرةُ أيّ موسيقى كانت أليس لتؤلَفها لو كان لها أن تعبَر عن هذا المشهد في فيلمٍ من الأفلام. ثمّ إنَي اندفعت إلى نافذة غرفة والديّ يجرَني الفضول.

مكتبة ياسين

26

لم أكن أتوقّع أن أجد سريرهما مرتّباً، والسّتائر تتماوج في هواء اللّيل، ولا ملابس نومهما معلّقةً على المشاجب. بالطّبع كانت الغرفة فارغة. الفراغ المشبع للأماكن المغمورة ماءً. ومع ذلك كنت هناك. وكانت تلك بالفعل غرفة والديّ. لا ريب في ذلك. بقيت هناك، معلّقاً بين الجدران الأربعة، ساكناً كذكرى، وقلبي يتقطّع من ألم غيابٍ فظيع. أفلتت منّي شهقةٌ، فقاعةُ حزنٍ اضطربت لها، برهةً، الخطوط. ثمّ بذلت جهدي لأنتقل إلى الحجرة المجاورة. إنّها الصّالون. هو أيضاً فارغ. إن استثنينا هيكل تلفازٍ التهمته الطّحالبُ المتموّجة. على أنّ الذّكرى المثيرة كانت في موضعٍ آخر. أقصى الصالون كان ثمّة الدّرج الذي رأيت شلالَ العسل والذّهب نازلاً منه يسحبُ معدّاتِ نزهتي. وأعلى السلّم، الصعيد المفضي إلى غرفتنا. مغلقة. تدعوني إلى أن أفتحها. مثلما يحدث في فيلم رعب. (يمكن أن نقدّم أطروحةً بهذا الصّدد: السّلالم المقلقة في أفلام الرّعب... دعوةُ المتفزّجين إلى أن يصعدوا السّلّم، ويفتحوا الباب، بقلوب خافقة، باب طفولتهم). لم أصعد السلّم، ملأت رئتيّ لأصعد، دون أن أقوم بأيّ حركةٍ، إلى مستوى الصّعيد. قلت لنفسي وأنا أدنو من الباب، إنّني أعومُ في ديكور حلمي. وقلت لنفسي وأنا أمسك مقبض الباب، إنّني ألمس حلمي.

وأدرتُ المقبض.

وتلك كانت الحركة التي أنهت، نهايةً مباغتةً فظّةً، دولتنا تحت الماء.

مكتبة ياسين

27

لأنني وجدث في الغرفة لُوَي. لكن لوي في سنَ الحادية عشرة. أراني قطعة نقديَةً من فئة فرنك واحد.

صحت:

- لا تفعل!

فات الأوان. لقد أدخل القطعة النقدية في موزع النور. اشتعلت هالةُ القدَيس سبستيان الموضوع على مدخنة الرَخام، مثلما ينفتح ذيلُ طاووس، وأُضيئت الغرفة كلّها.

إذّاك صحت فيه:

- اللَعنة، ما أحمقك! جدَتي لا تملك مدخنةً! ولا القدَيس سان سيبستيان! أنت مزعج، سحقاً لك! لقد خرَبت كلَ شيء!

كلَ ذلك وأنا أشهقُ باكياً كضائعٍ.

مكتبة ياسمين

IV

فيديريكو فيلّيني

كتابُ أحلامي

إن أنعمت النظر في هذه الأوراق، وجدت فيها كل فئي، كل سنيماي.

فيديريكو فيلّيني إلى فيتشينزو موليكا

كتابُ أحلامي

مكتبة ياسين

28

لو أنَ تلميذاً من تلاميذي السَابقين وقع على هذه الصَفحات، حقَ له أن يوبَخني

- كيف تستعمل حيلة الحلم، مرّتين في كتابٍ واحدٍ يا سيّدي! مرّتين في كتاب واحد! أنت الذي كنت تحرَمُ علينا اللّجوء إلى هذا النّوع من الحيل، أيّام كنت تملي علينا مواضيع للتّحرير: «ولا تلجؤوا إلى حيلة الحُلم، مفهوم! لا تحاولوا الهرب من ذلك الباب؛ أنا في أعقابكم حاملاً هراوةً غليظة!»

بلى، بلى. أنتم محقّون، لقد شننت عليكم تلك الحرب. كم مرّةً ردّدت على مسامعكم:

- لا يتعلّق الأمر بحلم، لا مجال للحديث عن زوّار من المرّيخ، ليست المسألةُ هذياناً ولا ألاعيب سحر، ولسْتم منوّمين مغناطيسياً، ولا سكارى، لذا أريد أن أقرأ منكم أعمالاً من وحي الخيال مبدعةً وواعية، هل فهمتم؟ الزموا الواقع، فإنّ في الواقعِ فسحةً لكم!

لكن، ما العمل؟ هذين الحلمين، قد حلمت بهما فعلاً. حلمت بهذا وذلك. بنفس الشّخصيات. على مسافة عقودٍ من الزّمن، ويبدو الثاني بمثابة تحليلٍ للأوّل. كيف لا نصدّقُ حلماً تحليلياً؟ كيف ينتابنا الشك، والحال هذه، أنّنا نحلمُ مرّةً أخرى؟ وذلك ما يفسّر صيحة الغضب التي أطلقتها، بحسب لوْ، لحظة استيقاظي.

كان متكوّراً عند طرف سريره.

- اللّعنة، ظننتك ستنقضُّ عليّ!

لا شيء من تلك الجولة تحت الماء قد حدث. ولا حتّى مقترحه. كنّا شيخين هرمين، استيقظا في سريريهما المتشابهين. منامتانا قبيحتان. فتحت

مكتبة ياسين

النافذة لأهوي الغرفة.

قال لوَي: - أمَا السدُ، فقد مررت به العام الماضي، ولا شيء تغيَر. نفس القذارة الأسمنتيَة الكئيبة تسحق منظراً طبيعياً ذي ضفاف موحلةٍ. شيءٌ غايةٌ في الشَناعة. لا بدَ أنَني أبغضك بغضاً شديداً، لكي أقترح عليك الغوص هناك. إنَ الأسماك تطفو على سطح تلك البحيرة.

استيقظ المنزل بينما أستعيد رشدي. رائحة القهوة والخبز المحمَص. قرقعة الفناجين والصَحون.

ثمَ خربشةٌ على باب غرفتنا. إنَهما التَوأمتان.

- استيقظا أيَها العجوزان، حان وقت النَهوض.

ثمَ نزلتا الدَرج مقهقهتين.

مكتبة ياسين

29

- هل كتبت جزءاً جديداً من مغامرات كامو يا جدَو؟

رمتني ميلا ونورا بالسؤال ما إن جلست إلى إنائي. سؤال نقابي. إذ تشعران بنفسيهما مكلَفتين من طرف بقيّة الأطفال.

أجبت: - لا نكتب كتاباً في ليلة واحدة.

علّق فانون: - أوه لالا، جدَو في مزاج سيئ.

قال لُوَي: - لقد حلم.

لاحظت بين: - منذ زمنٍ لم تحلم.

قلت: - في آخر أيّامه، صار فيديريكو فيليني عاجزاً عن صناعة الأفلام، وكان يشكو عجزه عن الحلم.

مكّنني هذا القول الجازم المباغت، من أن أرشف أوّل رشفةٍ من قهوتي.

سألتني أليس:

- عمّ يحكي هذا الحلم المبهج؟

لخّصت لهم مضمون حلمي.

سألني فانشون: - وهذا كلّ شيء؟

قال لوي: - لقد خرّبت كلّ شيء، حين أوقدت هالة القدّيس سباستيان.

خلص كريستوفو: - لن ترى حلماً آخر.

مكتبة ياسين

30

تعساً لها من أحلام... لو أننا كنا فقط قادرين على التحكّم فيما تخلّفه فينا من انطباعات. كنت لأقود، صباح ذلك اليوم، الجميع مبتهجاً، في سرد سياحتي تحت الماء، منمّقاً الأشياء، وهو ما أفعله بالعادة، إذ أوزع، على سبيل المثال، أدواراً على الجميع: لقد رأيتك يا لول، على شاطئ السدّا! كنت تتبختر على منصّة خوص، وحولك الفتيات يتساقطن كالذّباب. والحقُّ أنّك كنت تحصد نجاحاً باهراً بفضل وشومك على طريقة لاعب ريكبي ماوري. كذلك رأيتكما يا ميلا ونورا، بزعانفكما الصّغيرة وقنانيكما الكبيرة. كنتما تلتقطان صوراً في الكنيسة المغمورة. وأنت يا أنا، ألست أنت من كنت تحومين حول شارة التبغ؟ تعلمين أنّك مُرهقةٌ. كم مزّةً عليّ أن أقول لك أن تنتبهي إلى الخردة الصدئة حين تغوصين؟

لكنني، صبيحة ذلك اليوم، لم أكن رائق المزاج. من كلّ تلك الملحمة الحلمية –طوفان النّور، استكشاف القرية المغمورة، والعودة إلى المنزل من نافذة طفولتي– لم يبقَ لي غير حزنٍ عميقٍ وصموت، إحساس مربك جداً، ويصعب وصفه. حين أقع فيه، يخرسني الحزن: **فيليني لم يعد قادراً على الحلم.** ذلكم ما تبقّى من حلمي. الانطباع المهيمن. مات فيديريكو من عجزه عن الحلم. ذلكم هو الزاكد بين مياهي، ومنه لا أستطيع أن أنبثق. مستحيل أن أطلع إلى السّطح ما دمت أحمل ثقل هذا الحزن. إنّ الرّجل الذي كان الحلم عنده هو الحياةُ نفسها، قد مات من عجزه عن أن يحلم.

مكتبة ياسين

31

لاحقاً خلال النهار (وكنا جميعاً نلهو برمي السهام في الجرن)، سألني لول:

- من كان هذا المدعو فيليني؟

- سينمائيّ المفضلَ.

- أجل، لكن من كان؟

مكتبة ياسين

32

فيديريكو فيليني كان سينمائياً معروفاً على الصَعيد العالمي، اشتغلت معه جدّتك الكبرى، أمّي، سنوات 1960. أيام طفولتي، كنت أنام تحت حلمٍ من أحلامه معلّقٍ فوق سريري. طيلة ثلاثين سنةً دأب فيليني على رسم أحلامه وتصويرها بالفرشاة. ثمّ جمعها في كتابٍ كبير: Il libro dei sogni (ترجم إلى الفرنسية بعنوان Le livre de mes rêves (3)). إنّه هنا، في المكتبة. هاته يا لول من فضلك. انتبه، إنّه ثقيل. شكراً. انظروا، كان فيليني يرسم أحلامه ما إن يستيقظ. ويلوّنها بكلّ ما طالته يده. وبعد أن يلوّنها، يسرذها فيما فصْلَ عن الرّسم من مساحة. ممّا يجعل الصَفحات كلّها متخمةً بالصور والسّطور المتداخلة، أرأيتم؟ كتابته الصَغيرة، المستقيمة، السّريعة، تسدّ كلّ فراغٍ، كما تفعل أحاسيسنا تجاه الصور التي تنتجُها أحلامُنا. (أحلامُنا ممتلئة كبيضة، هل لاحظتم ذلك؟ الصور والأحاسيس تملأ كلّ شيء. لا مكانَ للفراغ. في أحلامنا لا نشرد). انظُروا، هنا صارت كتابته مائلةً، ومعنى ذلك أنّه يكتب بسرعة. إنّه مستعجل. لا بدّ أنّ لديه شاغلاً مستعجلاً.

- سيّد فيليني، هل لي أن أتحدّث معك؟

- فيديريكو، نحتاجك!

- مايسترو، تعال انظُر!

- فيديريكو، كم كومبارساً سنستعين به في مشهد القارب؟ لقد غيّرت رأيك أمس!

- سيّدي فيليني، لقد وصلت الأزياء، هل تريد أن تلقي عليها نظرة؟

- مايسترو، الفرنسيّون على الهاتف، ماذا أقول

مكتبة ياسين

لهم؟

- فيديريكو، الكومبارس هنا، ماذا نصنع بهم؟

الجميع ينادي عليه، والوقت يضغط عليه، وقلمه يجري. انظُروا، ما انفكت السَرعة تميل بكاتبته على الورقة. إنَه الصَباح الباكر، نحن في روما، طريق توسكولونا. وستوديو رقم 5، شينيتشيتا، يضجُ كقفير نحل...

أين فيديريكو؟

- هناك، جالس عند قاعدة الرَافعة، يدوَن حلمه الماضي. وقد طلب دفتر الإنتاج ليرسمه.

مكتبة ياسين

33

إنّ استوديو 5 في شينيتشيتا هو بيت فيليني الحقيقيّ. هو جمجمته. هو البناء الذي تينع فيه صور أحلامه متحوّلةً إلى أفلام. هناك صوّر أفلامي المفضّلة: La dolce vita, 8½, Fellini Satyricon، ثمّ لا سيما Roma, Intervista, La nave va الذي يعني بدارجة روما «أتذكّر»: A m'arcordo, io mi ricordo، أتذكّر. هذا الفيلم رأيته مرّاتٍ ومرّاتٍ، حتّى بتُّ أتذكّر كلّ لقطةٍ من لقطاته. لا بل حتّى إنّني قد حلمت به!

البلاتوه الذي كان فيليني يصوّر فيه، كان شبيهاً بالصّفحات التي يرسم فيها؛ بلاتوه مفتوح على كلّ الاحتمالات. كان يُسقط فيه أمطاراً عاصفةً، ويُحدث أمواج محيطاتٍ عاتيةً، ويطلقُ هدير قطعانٍ من الفيلة. فيه نشهد جواري عظاماً تعبر المحيطات، وبوارج تغرق، شموساً تغرب، وأقماراً تبزغ. فيه يشقُّ قنوات البندقيّة، ويفجّر ألعاباً ناريةً. وفي الخارج، تحت شرفات لا تخلو من أناسٍ، يجلس إلى موائد رُمّز من الرّومان الصّاخبين، يتناولون العجائن. ذلكم هو استديو 5. فيه بنى مدينة طفولته، ريميني، ليصوّر فيلم أماركورد. وآنذاك صار الاستوديو مأهولاً بكلّ الوجوه التي عرفتها ذاكرة طفولته.

كان فيليني رجلاً مأهولاً.

معظم شخصياته كانت تسكنه قبل أن يبدأ في تصوير أفلامه. كان يحلم بها، فيرسمها في كتاب الأحلام، حيث يتخيّلها ويعلّقها بطرف مفرشٍ: ثلاث ضرباتٍ من قلم الرّصاص، وينبثق أحد. وهذا الأحد، هذا الوجه الطّالع من مخيّلته، يبحث عنه بعد ذلك في الواقع، ليجعل منه شخصية.

مكتبة ياسين

لذلك كان، قبل تصوير أيّ فيلم، ينشر إعلاناً في الجرائد: **فيديريكو فيليني مستعدٌ لأن يستقبل كلّ من يرغب في مقابلته.** فيضجّ استوديو 5 بحشدِ الحالمين أن يصيروا صورةً فيلينيّة، وأغلبهم قد بعثوا إليه من قبل برسائل مليئة بالآمال والصور: النساءُ ذوات قدود هائلة، الفتيانُ المتصنّعون اللامبالاة، الباباراتزي المتدحرجون، البهلوانات الموسيقيّون، الأمّهات الساذجات، الأطفال المشاغبون والآباء المتقلّبون، المتبجّحون المختالون، المتشرّدون الصّارخون، النساء الخطيرات والرّجال المغفّلون، وجوه المنتجين القلقين، والتربويين السّخيفين، ورجال الدّين المتباطئين... جميعاً يتزاحمون عند أبواب ستوديو 5، حيث يعلمون أنّ فيديريكو فيليني يبحث عن معجزة التجسّد.

وأحيانا تقع المعجزة. لقد تخيّل فيليني شخصية، وهي ذي الشّخصية هنا! أمامه! هلّيلويا! وبحسب ما تقتضيه الحاجة، قد يضيف ثؤلولاً إلى هذه الجبهة، أو دملاً على ذاك الأنف: أهلا بكم وسهلاً، يا مواطني أفلامي! أهلاً بكم في لا سترادا، في فيتيلوني، في روما، في أماركورد، في ½ 8، في أنترفيستا(4)! مرحباً بكم! مرحبا!

وإن لم يكن المواطنون يحسنون الكلام، أو إن لم يستطيعوا حفظ أدوارهم، فلا بأس:

المهمّ أن نصوّر. عُدّ الأرقام كما تتحدّث، بنبرة الغضب، مثلاً: عشرة، أحد عشر، اثنا عشر، بغضبٍ، هكذا، جيّد جداً... ثلاثة عشرا! أربعة عشرا! والآن بنبرة الإعجاب: ثلاثمائة وثمانية عشر ألفاً ومئتان وثلاثة وخمسون... بنبرة الإعجاب، هكذا، 318253!

مكتبة ياسمين

جيّد يا جيجي، ممتاز. انس النصّ، انساه، لا تقلق، غدًا. الكلام الفعليّ سيأتي لاحقاً. الكلامُ شيءٌ آخر. الكلام، المعنى، التعقيد، تلك تفاصيل، نسجّلها لاحقاً، في مكانٍ آخر، حتّى إن اضطررنا إلى الاستعانة بصوتٍ غير صوتك.

مكتبة ياسين

34

الخلاصة، انتصر في الأستاذ؛ فما كانت العطلة سوى درسٍ طويلٍ عن فيديريكو فيليني.

مكتبة ياسين

35

سألني لول: - لكن، ماذا كان حلفك أنت؟ حلمك الذي علّقته أمَك على رأس سريرك؟

- كان ضرباً من الأحلام الأفلاطونية. يحلم فيه فيليني بفيلمٍ يصوّر ما يحدث بالضَبط خارج قاعة السينما، في اللّحظة التي يُعرض فيها الفيلم نفسه: كسوف شمس، بروقٌ تغشى الأبصار، عاصفة، زوابع مائية، شوارعُ تجري مياهاً، طوفانٌ يغرق المدينة برمّتها، ثمّ صمتُ المساء الطّويل على المنازل المخرّبة، بعد انحسار الماء. فيديريكو وزوجته، جولييتا، يهيمان بين الخرائب. كلبٌ يتسكّع. كلبٌ من تلك الكلاب التي كانت، في فيلم أماركورد، تثني ذيولها بين قائمتيها، حين يفجّر الأطفالُ مفرقعاتِ. ومع ذلك، كان الكلب يبدو سعيداً جداً بالتّشريف الذي حظي به، إذ صوّر مرّةً أخرى مع المايسترو.

مكتبة ياسين

36

أجل، لقد أفادنا كتابُ الأحلام، في ذلك الصَيف، غاية الإفادة. وحين أستعمل ضمير «نحن»، فإنّما أقصد به البالغين. صيفٌ هادئ، قضاه الأطفالُ في رسم حُلم. ومن يحسن منهم الكتابة، كان يحيط رسومه بجمله كالأفاعي.

- مثل فيليني!

وكانوا يطلعوننا على نتائج عملهم قبل الذَهاب إلى النوم، آملين أن يجدوا في النوم تتمَةً لأحلام يقظتهم.

- ربَما ينجح الأمر، كما يحدث في المسلسلات؟

مكتبة ياسين

37

وبإيعازٍ من الإثارة العامّة، كان ذلك هو الضيف الذي قرّرت فيه أن أكرّم فيديريكو فيليني. قضيت طفولتي تحت حلمٍ من أحلامه، وقضيت شبابي أنتظر صدور أفلامه، وقضيت بقيّة حياتي أعيد مشاهدتها، بلا ملل أو كلل. كان هذا الرّجل لي أثمن من أسرةٍ، عليّ إذن أن أكرّمه قبل أن تخونني قواي.

- هل ستكتب كتاباً عنه؟

- كلّا، ثمّة الكثير من الكتب عنه.

- ستصنع فيلماً؟

قطعاً، كلّا، فأنا لم أحمل قطّ في يدي كاميرا. وأنا، تحديداً، لست فيليني. جرّب أن تضعني خلف عدسة كاميرا، لن أرى شيئاً مميّزاً. ثمّ إنّ مهنة السينمائيّ مهنةٌ معقّدة، ينبغي أن يكون المرء، في آنٍ، حالماً، فنّاناً، مدبّراً مالياً، وكيل إعلانات، مصنّعاً، جنرالا... ينبغي أن يوظّف أفضل مدير تصوير، ويستعين بجيشٍ من الممثّلين، والمساعدين، والتقنيّين، ومهندسي الإضاءة، والنّجارين، واللّحامين، وعمّال الديكور، ومسؤولي الأزياء والماكياج والحلاقة. ينبغي أن يحكم كلّ أولئك. وينبغي، قبل ذلك كلّه، أن يجد تمويلاً، أن يُقنع المنتجين، أن يخضع لمتطلّبات قنوات التلفزة، أن يخطب ودّ أصحاب القرار، وهم اليوم أناس من جيلكم، لكنّهم ليسوا ألين من الأنذال المسئين الذين كانوا، فيما مضى، أصحاب قرارٍ. وأراهن بحياتي أنّ أصحاب القرار اليوم لم يشاهدوا قطّ فيلماً لفيليني. سيسألونني: لم فيليني؟ منْ من أبناء اليوم يعرف فيليني؟ لا أحد يهتمّ لصاحبك المدعو فيليني! ثمّ، لم في رأيك كفّ فيليني عن تصوير الأفلام سنوات التسعينات؟ أو ذلك المزعج الاخر، ما اسمه؟ آه! نعم، أروسون

مكتبة ياسين

وايلز! برأيك، لم كفّ فيليني وأورسون وايلز عن تصوير الأفلام؟ ألأنّهم لم يجدوا منتجين؟ فليكن. لكن، لم لم يجدوا منتجين؟ ألأنّ أفلامهم كانت باهظة الكلفة؟ كلّا! لأنّ أفلامهم ما عادت تدرّ فلساً! انزل إلى الأرض أيّها الجدّ، غد إلينا، لقد كفّ فيليني عن تصوير الأفلام لأنّ المشاهدين ما عادوا يذهبون لمشاهدة أفلامه، نقطة إلى السّطر. منذ سنوات التّسعينات، ما عاد أحدٌ يأبه لصاحبك فيليني. تستطيع أن ترحل مطمئنّ القلب. ذلكم ما سيقوله لي أصحاب القرار اليوم. لا فائدة في أن أعارضهم بالقول إنّ فيليني، قبل أن يجد منتجاً يقبل أن يموّل فيلم لا دولتشي فيتا، قد طرق أبواب دستةٍ من المنتجين، ولا أحد رضي أن يعطيه فلساً. لكن، عقب النّجاح العالمي الذي أحرزه فيلم لا دولتشي فيتا، صار المنتجون يتسابقون عليه، جميعهم يريد أن ينتج أفلاماً من قبيل لا دولتشي فيتا، ولا شيء سوى لا دولتشي فيتا، كيلومتراتٌ من لا دولتشي فيتا، ظرقٌ أبيا من الحياة **العذبة**، جميع المنتجين، إلى أبد الآبدين.

كلّا، لا أستطيع أن أصنع فيلماً حول فيديريكو فيليني.

مكتبة ياسين

V

فيديريكو منبعثاً

ينتابني الانطباع بأنني لم أتغير، مذ كنت في السابعة عشرة من عمري.

فيديريكو فيلّيني إلى جيوفاني غرازيني

فيليني بقلم فيليني

مكتبة ياسين

38

كان المسرح في نهاية المطاف هو المكان الذي بعثنا فيه فيديريكو. على الخشبة، تحت الضوء. وأستعمل ضمير الجمع لأنني حشدت، لإنجاز هذا العرض، كلّ من أعرفهم من المسرحيّين. جمعت ممثلي فرقتنا الباريسيّين، ونزلنا إيطاليا، إلى بيستويا، قرب فلورنسا، لكي نحضَر للعرض في فونارو دانتونيلا كارارا، وهو مختبر المسرح بامتياز. ولقينا هناك أنتونيلا، وليزا، وماسي، وفرنتشيسكا، وكذا نابوليتانيّي لا كاسا، لودو، وروبيرتو، وباكو، وديمي الذين جمَعت معهم المشاهد الإيطالية والفرنسية، تعبئةٌ كونية: مخرجتُنا، كلارا، انضمت إلينا من الأرجنتين، فينوث من تشيناي، بيبي من باماكو، تشيمو من كاتالونيا، بابيت من بروكسيل، فانشون من مارسيليا، والآخرون من مونروي وباريس. بدأ كلّ شيء بوليمة الترحيب المعتادة، ليا وباولو أمام المواقد، وألي ولوروان إلى البيانو، والبقيّة بأصواتهم، حتّى تقدّم اللّيل.

وآنئذٍ أعلنت عليهم أنّنا سنقيم عرضاً حول فيديريكو فيليني. عنوانه: **فيديريكو فيليني مستعدٌ لأن يستقبل كلّ من يرغب في مقابلته**، سنفرض على الجمهور شرطين: احملوا معكم آلةً موسيقيّة، أيّاً كانت، حتّى لو مقلاة؛ ولا تنسوا هواتفكم المحمولة. الهاتف المحمول شرطٌ لا غنىً عنه! إيّاكم أن تنسوا هواتفكم النقّالة!

مكتبة ياسين

39

كان أوّل ما رآه جمهوز بيكولو تياترو في ميلانو، يوم 20 يونيو الموافق لذكرى ميلاد فيديريكو فيليني المائة، هو قلبٌ أحمر يطفو فوق مثلَث أبيض. في البداية، لم يدر المشاهدون ما ذاك القلب، وذاك المثلَث، اللّذين يبدوان كالمعلّقين فوق الخشبة، ثمَ ما لبثت عيونهم أن ألفت الظَلام، فميَزوا في القلبِ وفرةَ شعر شابٌ يجلس مولياً الجمهور ظهره، وفي المثلَث كتاباً كبيراً مفتوحاً وقد وُضع على الخشبة مباشرة. كان الشابُ منحنياً على الكتاب، يرسم في عجلةٍ ملهمة. وفرةُ رأسِه الغزيرة تحجب عن الجمهور بدايات رسمه، صرير أقلام اللبد على الورق، هو ما ذكّرهم بالسنَ التي كانوا فيها هم أيضاً يرسمون بحماسة. ثمَ بدا لهم رسم الشَابّ مسلَطاً على شاشة. كان الشابُ يرسم حشداً مزركش الألوانِ، ضاجَاً، هائجاً مائجاً، ترافقه الآن رقصة سارباند يضطلع بها نايٌ ومزمار. يقول النَايُ إنَ الحشدَ فرِحٌ، بينما يشكَكُ المزمار في ذلك. يلاحق الحشدُ زوجين يركضان، يداً في يدٍ، فيغوصان في أفقٍ أزرقَ ليلكيَ مخطَط بالذَهب، كأنَما يهربُ العشيقان تحت وابلٍ من الشُهب.

وما أن فرغ الفتى من رسمِه حتَى جعل يكتب في الفراغات الباقية. يكتب ويحكي بصوتٍ عالٍ. صوث أنفيٌ عذبٌ كنايٍ:

- أنا وجولييتا نركض أمام حشدٍ لا أدري ما إذا كان عدوانياً أم ودوداً، ولا ما إذا كان يلاحقنا، أم ترانا نحنُ نسحبه... تطمئنني جولييتا: «التتمَة سيخبرنا بها، فيديريكو!»

مكتبة ياسمين

40

أمَا نحن، صنّاع التحفة، فظللنا نترصّد أدنى ردود أفعال الجمهور، من مقصورة العرض. متلاحمين كنّا بالعرق والخجل.

وبين الفينة والأخرى، تستسلم كلارا لغواية التعليق:

- أتسمعون يا أعزّائي؟ أتسمعون هذا الصّمت؟

فيشير لها تشيمو أن تصمت، ويقول هامساً:

- نودُ لو نسمعه!

تحتجُّ المخرجة:

- إنّما أشارككم حماستي.

- تمالكي نفسك يا كلاريتا، لسنا نشاهد مباراة في كرة القدم، ليست هذه مقابلة بين الأرجنتين وإيطاليا!

همست أليس وهي تطلقُ الموسيقى: - شش!

مكتبة ياسين

41

جرى العرض في أربعة أجزاء. نرى، أوّلاً، فيديريكو فيليني، شابّاً، يرسم حلماً وهو يسرده. والحلمُ مسلّطٌ على شاشةٍ في أقصى المنصّة. عشرون دقيقةً من الجمال الآسر.

ثمّ يعمد فيليني إلى الجمهور، فيختار منهم الوجوه التي تشبه وجوه خلمه. ويجرّبهم في تأدية مقاطع. وبين المتطوّعين العديدين الذين التحقوا به على الخشبة، كان ثمّة بالطّبع ممثلونا المتخفُّون. وكانت تجاربهم بمثابة «لحظاتِ إثارةٍ» حضَرناها بعناية.

وفي الجزء الثالث، تتحوّلُ الخشبة إلى استوديو 5، في شينيتشيتا: أضواء كاشفة، كاميرات، رافعات، سكك تصوير، لافتات ديكور، جلَبةٌ... ثمّ مكبّر الصّوت، صفت، كلاپ: شهد الجمهور حينئذٍ مقطعاً فيلينياً بامتياز، مقطعاً يؤدّيه المتفرّجون الذين اختارهم المايسترو.

المشهد الرّابع والأخير: ذروةُ الحفل، لحظةُ العرض على الشّاشة. ذهولٌ شاملٌ لا أحد من الحاضرين تعرّف على المقطع الذي صُوِّرَ للتوّ. الزوايا، اللّقطات الكبرى، الإضاءات، اختيار اللّقطات، إيقاع المونتاج، ثمّ، على نحوٍ خاصّ، الصّوث، الصّوث والموسيقى، الخلاصة: أسفرَ أسلوب المؤلّف عن شيءٍ آخر غير ما خلنا أنفسنا شاهدناه. حتّى الممثلون الذين لم يكونوا ينطقون، أثناء التّصوير، سوى أرقامٍ، قد اكتشفوا حقيقة ما قالوه، والأصوات التي مُنحوها.

أكان المايستو يرغب حقّاً في أن ينبعث؟ تلكم كانت موضوعة المقطع. أكان فيديريكو فيليني راغباً حقّاً في أن ينبعث؟ أكان ليطيق هذه التجربة؟ ليس الانبعاثُ بالشّيء الهيّن! أن تعود إلى أضواء

مكتبة ياسمين

النهار، نعم، إلى روائح الحياة، ليكن، إلى الخرشوف على طريقة روما والكفتة المسلوقة، بالطَبع (حتّى أنّ حانته المعتادة، دال توسكانو، قد احتفظت له بمائدته)، تلك كلّها أمور مغريةٌ، أن يستعيد القدرة على الحلم، ونبض الإبداع، بالتّأكيد، لكن لا ينبغي أن نغفل راحة الأبديّة العذبة، الإحساس الرائع بالتّحليق، مع جولييتا، يداً في يدٍ، في الزّمان والمكان، وغياب التشويق المطمئن... يا لها من معضلة! ينبعث؟ لا ينبعث؟ يحبس الجمهوز أنفاسه.

من البيّن بنفسه أنّ كلّ ذلك كان أرهف وأعمق، وأشدّ إبهاماً وإلغازاً، من أن أعبّر عنه بكلماتي هنا. وما الدّاعي إلى أن أكشف أسرار عرضٍ لم تشاهدوه بعد؟

مكتبة ياسين

42

- لقد أُسروا! لقد أُسروا!

ما انفكّت كلارا تردّد في المقصورة الحارّة، حيث نكاد نجفُّ: خمس مناشف خنقتها مشاعر التأثّر.

غمغم تشيمو متذمّراً: - اللّعنة، لقد تعطّل الكشّافُ الدوّار أثناء التصوير. انظروا إلى الضّوء يرجف جهة الحديقة.

همست إلى أليس: - صعودك بصوت المزمار مذهل.

قال ماتياس: - اصمتوا، أطلق جنريك الختام.

مكتبة ياسمين

43

وكان الجنريك يخبئ مفاجأةً أخيرة للجمهور الذي انفجر تصفيقاً. إذ شاهدوا على الشّاشة تتابع أسمائهم! سواء شاركوا في الفيلم أم لم يشاركوا، لم يستثنِ الجينيريك أسماءهم، بحسب الموضع الذي حدّدته لهم الأبجدية.

صاح أحدهم: - هذا اسمي!

فعاد الواقفون إلى الجلوس.

قال آخر: - انظُري يا باولا، هذه أنت!

انطلق التصفيق مجدّداً.

- أنا أيضاً هناك!

صار كلّ واحدِ منهم يفتّش عن اسمه، وبالفعل اكتشفوا جميعهم أنفسهم، ممثلين لحيواتهم، حاضرين في حضورهم، لأنهم كانوا بالفعل هم، بالفعل على الشّاشة!

- أنا هناك! أنا هناك!

- انظري أيّتها الخالة أدالبيرتا، أنت أيضاً هناك!

كانت الأسماء تتوالى على نغمات الترنتيلة(5) التي ألَفتها أليس لمصاحبة الرّسم في بداية الفيلم. نغمٌ مرحٌ متوثّب، يبعث في الجميع الرّغبة في الاهتزاز. وإذّاك برز ماسي، عزيزنا ماسي (ماسيميليانو باربيني، ابن مدينة بستويا)، بقامته الطّويلة، وسط الجمهور؛ انبثق حاملاً بوق نفخٍ، وعزف لحن الترنتيلة، نازلاً بفخامةِ صوب الخشبة. وفي إثره بابيت وباولو، الأولى بكمانها، والثاني بقيثارته. وكما توقّعنا، سايرهم الحضور الذين حملوا معهم آلات -وكانوا كثراً- عزف رجلٍ واحدِ. باكو، ولودو، وليزا، وذمي، وفانشون، وقد وضعوا مكياجاً على هيأة بهلوانات فيليني، يجزون إلى دوّامتهم

مكتبة ياسمين

الآخرين، حتى أشدهم خجلاً، فالتحق الجميع بمنضة العرض في رقصة فرندل هائلة، كتلك التي ينتهي بها فيلم 8½.

مكتبة ياسين

44

تدفَّق الجمهور كلّه، من المسرح، عبر مدخل الفئانين. خلف بوق نفخ ماسيميليانو باربيني يتردَد صدى خليطٍ من الأبواق والأكورديونات، والهرمونيكات، والصَنوج، والطبول، والمزامير، والكمنجات، والشبّابات، والقيثارات اليهودية، والمراجل، آلات المشاهدين المذهلة. ميلانيو حانة بيكولو يطرقون على رؤوس ميلانيي ميلانو، يعزفون لسكان الضفَة الضاحكين، لسكان الضفَة الصارخين، لمن يصاحبونهم في النقر، لمن يتابعون المشهد من أعلى شرفتهم:

- ما الخطب؟ ما هذه الفوضى؟

- يبدو أنّ فيليني انبعث!

- جننت؟

- كلّا، ألا تسمع الموسيقى؟ إنّهم يحتفلون بقيامة فيليني!

- تمزح؟ يحتفلون إذن لقيامة جولييتا أيضاً؟

- وأيضاً قيامة نينو روتا، أنصِت!

وما كان إلّا أن نزل ساكنو ضفَة شارع سان توماسو، في ليلة العشرين من يناير تلك، فانضمّوا إلى سكّان كورسو غاريبالدي وشارع ستريلر، وانعطفوا يساراً، فأتت ساكنة شارع فيسكونتي ترفد نهر الحشد بمزيدٍ من النفوس، وما لبث أن انضمَ إلى الحشد موسيقيو نهج لينيانو، إلى أن صارت ميلانو كلّها موسيقى لا غير. موسيقى زادت بريقاً بثلاثة أيامٍ من الرّيح القارسة التي كانت قد هبّت على ميلانو قبل الحفل، فأعادت للشّوارع رنينها الكريستاليّ.

وفي نهاية المطاف، اجتاح حشدٌ هائلٌ حديقة

مكتبة ياسمين

سيمبيوني، إذ انتشر الخبر، عبر هواتف الجمهور ووسائط التواصل الاجتماعي، علم الجميع أنّ فيديريكو فيليني قد قرّر أن ينبعث في ليلة العشرين من يناير هذه، على خشبة بيكولو تياترو، وأنّه يدعو الجميع إلى حديقة سيمبيوني للاحتفال بالمناسبة مع جولييتا ونينو.

- في سيمبيوني؟ حديقة قلعة سفورزيسكو؟ لكن، أليست الحديقة مغلقةً الآن؟

- فكّر قليلاً يا فابيو، شخصٌ لديه من الوسائل ما يمكّنه من أن ينبعث، هل يعجزُ عن فتح حديقة سيمبيوني في وجه سكّان ميلانو؟

- نعم، نعم، يستطيع بالتأكيد.

تلك اللّيلة إذن، قصدت ميلانو عن بكرة أبيها، بدعوةٍ من جمهور بيكولو تياترو، حديقة سيمبيوني، حيث أوقدت عشرات المشاعل، ذات المظهر الفيليني، كأنّما تحوّلت ميلانو إلى قريةٍ من قرى روما. بالطّبع تدخّلت الشّرطة آمرةً أن تطفأ المشاعل فوراً، فإيقاد النيران ممنوعٌ منعاً باتّاً، لكن أيّ منعٍ يفيدُ والخلقُ كثيرٌ يرقصون حول النيران، ويلعبون، ويغنّون... الخلاصة، تواصل الاحتفال حتّى وقتٍ متأخّرٍ، وشاركت فيه حتّى قوات الدّرك الوطنيّ الإيطاليّ.

حتّى أيّ ساعة؟ لا أدري، فأنا لم أكن هناك. إنّما حكى لي الأمر روبيرتو ولودوفيكا. كانا مرحين، وهما يحكيان لي:

- قصد جميع الموسيقيّين إلى سيمبيوني، كأنّما هو تجمّعٌ لطيور ميلانية تستعجل الهجرة إلى الجنوب. لا بأس بمخالفة الأعراف مرّةً في العمر.

مكتبة ياسين

45

إن لم نشارك في الحفل أنا وأليس، وباكو، وتشيمو، وماتياس، فإنّما لأنّ كلارا قد استبقتنا في بيكولو، لكي تنقّطنا. هكذا ألفينا أنفسنا، نحن الستّة، في المسرح وقد خلا إلّا منّا، كأنّما ضربته زوبعةٌ. كلّنا ذهولٌ من الصّمت المباغت. وكلّنا نتساقط في أحضان بعضنا بعضاً.

ها قد حان وقت التنقيط.

«لا مغادرة للمسرح قبل أن ينال كلٌّ نقطته» ذلكم شعاز مخرجتنا. ترصد مكامن الخلل أثناء العرض، فتنبّه الفريق إليها على الفور، لكي يتمّ تجاوزها انطلاقاً من اليوم التالي...

- ماتياس، حين يرسم فيليني حلمه على الدّفتر الكبير، ينبغي أن نرى وفرة رأسه بشكلٍ أوضح. إنّها أوّل صورة تظهر في العرض. لا ينبغي أن يظهر غير ذاك القلب الأسود على خلفيّة الورقة البيضاء، فقد كان فيليني فخوراً بلبدته! تذكّر أنّه في سنوات **كتاب الأحلام** الأولى، لم يكن يرسم نفسه إلّا من الظّهر. ينبغي أن يصدم هذا القلبُ المشاهدين: القلب الأسوَد، الدفتر الأبيضُ، ما يكفي برهةً للنّظر! ثمّ هوب! عرضُ الحلم على الشّاشة الكبيرة.

- كم ثانيةً نستقر على القلب إذن؟

- ستاً أو سبعاً. لنجرّب ستّاً.

- سبع ثوانٍ، حسناً.

- أليس، لا تعجّلي بإطلاق الموسيقى. اتركي الرّسم يعيش. ليسمع الجمهور صرير أقلام اللّبد على الورق، ليتذكّروا رسوم طفولتهم، وبعدها فقط تطلقين الموسيقى. وتخفضين الصوت ما إن يبدأ فيليني في الكلام. ينبغي للصّوت أن يساير تلقائياً

مكتبة ياسين

الالات، ينبغي أن يكون الانتقال من الموسيقى إلى الكلام أكثر...

- عضوية.

- أجل. موسيقى تتحوّل إلى كلام.

- حاضر.

- باكو، ينبغي أن نزيد في حجم الشاشة. أعرف أنّ الأمر صعبٌ، بسبب الأضواء الكاشفة، لكن تشيمو سيجد حلاً.

- الأمر ممكن، لقد تركت شيئاً من هامش. سأخفض 53، وأتفادى 57. على أنّ هذا سينقص من عمق الخشبة.

- بكم؟

- أربعين سنتمتراً تقريباً.

مكتبة ياسين

46

ولمّا ذهبت كلارا والاخرون إلى الحفل في حديقة سيمبيوني (هيَا، سنلحق بكم)، بقيت وتشيمو بمفردنا، لكي أساعده في ضبط أضواء الكشافات.

- ما دمنا نقوم بهذا العمل، ينبغي أن نفحص الكشاف الذي أخذ يهتزّ أثناء التصوير. هل تستطيع أن تلقي عليه نظرة؟ ربّما فك الجلاتين. ثمة ربّما تيار هواء في الكواليس يتسبّب في خفقان الورقة. ويتسبّب ذلك في طنين خافت.

- الكشّاف في الحديقة، بين الأستار. هو أحد كشّافات فيليني المتحرّكة.

هو أحد تلك الكشّافات المتنقّلة التي كان يلاحق بها فيليني ممثليه. نورٌ في علوّ رَجُلٍ، يديرُه حول أنوك إيمي، أو حول ماسترويواني من غير أن يفلت وجههما. كان يحلو له أن يقارن هذه الإضاءة بالأشعّة س التي تكشف عن كلّ شيء. وتؤمن كلارا على رأيه، إذ ترى أنّ إضاءة مماثلةً «لابدّ أن تُبرز شخصيّة الوجه». وقد دفع بها هاجس الدّقة التاريخية إلى أن تنبش عن واحد من تلك الكشافات المتنقّلة. كشّاف فيليني شخصياً، فرشاة المايسترو، كما تقول. وتلك عبارةٌ من العبارات التي تتردّد في شينيتشيتا.

سألني تشيمو: - هل وصلت؟ سأشغّل النور!

ولمحت، هنا في أقصى الدهليز المظلم الذي شقّته أستار المخمل الأسود، اشتعال ضربٍ من الشّمس الغاربة. شمس تعرفت عليها فوراً، فسمّرتني في مكاني. لقد تجلّت صورةٌ مدفونةٌ فيّ عميقاً، حتّى أصبتُ بالذّهول، كأنّما طلع عليّ بغتةً صديقٌ أضعتُه منذ غابر الأزمان، لكنّ غيابه لم يغيّر شيئاً من

مكتبة ياسين

ملامحه.

مصباح طفولتي!

المصباح الصغير الذي كانت أمي تتركه مضاءً في البهو، يلمع الآن في ليل المسرح.

بومي.

نفش الهالة الصهباء حول الموقد اللامع نفسه...

صورةٌ ضاربةٌ في القدم.

ومع ذلك ضاربةٌ في الحضور.

إنها حاضرُ الماضي.

هنا.

وتلوح لي بنفس التحدّي:

- انظُر إليّ، انظُر إليّ، إن كنتَ تجرؤ!

كأنما حياتي لم تتحرّك ثانية.

جرعةٌ من السعادة الخالصة، بالطبع.

ثمّ عودةٌ إلى واقع اللّحظة. تشيمو محقٌّ، يظهر اهتزازٌ طفيف في أشعّة هذه الشمس العتيقة. وازداد الاهتزاز وضوحاً حين اقتربت من الكشّاف، فسمعت صريراً...

وانتبهت إلى رائحة سلك محترق.

زدتُ اقتراباً.

قلت لتشيمو: - ليس الجلاتين، فهو ملتصق بإحكام، بل هو...

لكنّ الكشّاف انفجر قبل أن أكمل جملتي، وكأنّما ابتلعتني الشمس.

مكتبة ياسين

VI

10 ٪ تقريباً

كتابُ أحلامي

عندما سمع برنهارد ذلك الحلم، قال لي:

«سيدي فيليني، هلا اشتغلنا جدياً؟»

فيديريكو فيليني

كتابُ أحلامي

مكتبة ياسين

47

بعينين مغمضتين كنت أصغي إلى مين تشرح في الهاتف ما جرى لي (إلى من كانت تتحدّث؟ إلى أمّها؟ إلى أليس؟ إلى إزابيل؟ إلى فانسون؟ أنيتا؟ كريستوفو؟). لم أكن في ميلانو، بل في باريس، ولم أكن في بيكولو تياترو، بل في غرفةٍ بمستشفى قريبٍ من بيتي. ولم أنقل إلى المستشفى بسبب انفجار كشّاف المسرح، بل بسبب المسلاط الذي احترقت لمبته بينما كنا نشاهد أماركورد مستلقين على السّرير. صحيح أنّ الحادثة وقعت يوم الأحد 20 يناير، ممّا يوافق ذكرى ميلاد فيليني، لكنّ ذلك محض صدفة.

بالكاد كانت مين تدري ما حصل. وصفت الأمرَ بدايةً بأنّه «أزمةٌ من أزمات شبابي».

كانت تقول في الهاتف: - تعرفينه، نوبةٌ من نوباته الجسدية، شبيهة بتلك التي وصفها في مذكّرات جسد.

لقد أسلم المسلاطَ الرّوح، أثناء عرضه فيلم فيليني.

بوف!

- أوّاه! كلّا! سحقاً!

بدلاً من أن أطفئ الجهاز، وأذهب بحثاً عن سلّمٍ، قفزت من السرير، وضعت كرسيّاً على طاولةٍ، وتطاولتُ إلى المسلاط المتّقد، عازماً أن أغيّر اللمبة المحترقة بدون أن أنتظر حتّى تبرد تلك الفوضى. أمّا ما جرى، وأنا في الأعلى، فلا تستطيع مين أن تصفه بدقّة؛ لقد سمعت انفجاراً مكتوماً، انفجاراً من ذلك الذي قد يتسبّب في انطفاء منزل. وإثر ذلك هويت أنا، ومرقاتي المصنوعة من الكرسيّ

مكتبة ياسين

والطاولة، في صخبٍ، لكن من دون أن تندَ عنّي صيحةٌ. ولم أقم بعدها. غيبوبة. ظنّتني زوجتي قد متُّ، مصعوقاً بالكهرباء، على البساط أسفل سريرنا الزوجيّ. رعبٌ، طوارئ، مستشفى. قضت اللّيلة على المقعد تراقبني، وهذا كلّ ما في الأمر.

- كلّا، لم يفق بعد، لا. مضت اثنتا عشرة ساعةً... نعم... لا... لا أدري... لا أدري... يقولون... لا، كلامهم غير مطمئن، يقولون إنّهم لا يستطيعون أن يقولوا شيئاً.... لا نستطيع أن نقول أيّ شيءٍ يا سيّدتي، لا عن مدّة غيبوبته، ولا عن صحّته عند الاستيقاظ. مضاعفات؟ نعم، مرجّح، لكن حتّى المضاعفات لا نستطيع أن نحدّد طبيعتها أو خطورتها، لم يعد شابّاً، أليس كذلك؟ يمكنه أن... هو أصلاً محظوظ إذ لم يتعرّض لأيّ كسر، يمكنه أن... لا يدرون. كلّما طالت الغيبوبة، زاد الخطر، هذا ما فهمته. قال لي فابريس إنّه حالما ينتهي من دوامه في المستشفى حيث يشتغل، سيأتي ليراه. كلاّ... كلّا، أنا أنظر إليه، إنّه نائم... آه! لا، مهلاً! مهلاً! مهلاً! كلّا، هو ذا يستفيق! يستفيق! يفتح عينيه! سأعاود الاتّصال بك! سأعاود الاتّصال بك!

مكتبة ياسين

48

بيَن لي فابريس، وهو جرّاح جهاز عصبي، أنَ سبب مدّة غيبوبتي هو ضغطُ تورّمِ دمويّ على الدّماغ البيني، أمّا الأحلام فسببُها ضغطُ التورّم نفسه على الجهاز النطاقيّ، حيث تخزُنُ الذّاكرةُ ذكريات الحياة كلّها.

ثمّ خلص إلى القول: - هوذا يا صاحبي، أنت نظامٌ دقيقٌ، ينتجُ إنتاجاً عشوائياً. روائيٌ في المحصّلة.

ما إن توضّحت المسائل الطبيّة حتّى أردت أن أعجّل باغتنام باب الأحلام الذي فُتح لي أثناء الغيبوبة. فما إن استيقظت حتّى انتابتني الرغبة في أن أكتب رواية سيريّة، على نمط **صورة الفنان حالماً**، أو شيء من هذا القبيل. يبدو المشروع قابلاً للإنجاز، لا سيما وأنّ أحلامي على التوالي، من فيضان النور، إلى انفجار الكشّاف، مروراً باكتشاف القرية الغارقة والصيف الفيليني (أدركت ذلك حيث عهدت بتلك الأحلام إلى مسجّل الهاتف)، تتبع تطوّراً كرونولوجياً. -طفولة، مراهقة، رشد، شيخوخة- وتبدي ضرباً من التناغم الموضوعاتي. يرافقني فيلّيني على امتداد هذا السّرد، كخيطٍ أحمر، قُربى يبدو أنّ لاوعيي يحرص عليها أشدّ الحرص.

مكتبة ياسين

49

حين دخلت عليّ أليس الغرفة بالمستشفى، نصف ساعةٍ بعد استيقاظي، أعلمتها برغبتي في أن أنجز عرضاً بمناسبة الذكرى المئوية لفيليني.

- أنت حيٌ يا بابا؟ أنت متأكّدٌ من أنّك حيٌ؟

حيٌ أنبض بالحياة، ومتحرزٌ لبعث فيديريكو فيليني. العرض جاهزٌ في ذهني، حلمتُ به، أنشأته إنشاءً. لم يبقَ إلّا أن أكتبه، ثمّ الإخراج والموسيقى. فيم تشتغل هذه الفترة؟ هل لديها الوقت -والرغبة- في أن تؤلّف موسيقى لمشروعٍ كهذا؟

- ما رأيك في عملٍ حول فيليني؟ وبينما أبعثه، ستبعثين أنت نينو روتا، ما قولك؟

مكتبة ياسين

50

مضى زمنٌ كان فيه امتحان الباكالوريا يقترح تمريناً مثيراً للاهتمام. أن تلخّص إلى الربع (مع هامش 10٪)، نصّاً مشحوناً بما يكفي من المعنى لتبرير فعلٍ بهذه الدّرجة من الهمجية. نصوص مختارة من الفلسفة، أو الإثنولوجيا، أو علم النفس، أو علم الاجتماع، أو سجلات العصر، أو المقالات السجاليّة، وكذا عددٍ من المقالات الافتتاحية... كلّها كانت توضع رهن فصاحة طاحونة المترشّح. لم يفلت من الطّحنِ مؤلّفٌ؛ حتّى بول فاليري، ورولان بارث، لم يشفع لهما ما غرف عنهما من إيجازٍ في اللّفظ، وتقشّف في الكتابة، وألقي بهما في طاحونة الاختصار. كنّا، أنا وتلاميذي، نحبّ تلك التمارين. كلّ أسبوعٍ نستمتع باللهو بعصّارة-ليمون الحكمة. نسبة المعنى المستخلصة من الأرباع الأربعة، تتجسّد في تلاخيص واضحةٍ جداً، ومتوازنة تمامَ التوازن: كنّا أذكياء. وإذّاك يلقي بظلّه السؤالُ الوحيد الذي يستحقُّ الاهتمام: ما فائدة الأرباع الثلاثة التي ألقينا بها في سلّة النفايات؟ الجواب: فائدتُها أن تجعل من ذاك النصّ منظومة حيّة. أن تجعل من تلك الكتابة أسلوباً. أن نجعل من ذاك المؤلّف فرداً فريداً. لقد استخلصنا معنى الحياة، هنا تكمن حياة المعنى.

ذلكم ما كنت أفكّر فيه وأنا مستلقٍ في سريري بالمستشفى، مقلّباً أحلامي: ما نسبة الواقع فيها؟

وكانت أليس قد عادت إلى منزلها، مطمئنّةً على صحّة والدها، وطافحةً بالطّاقة الموسيقيّة. وعادت مين، حاملةً معها حاسوبي المحمول، وعشاءً خاصّاً يجعلك تلعن كلّ مشافي باريس. كلاهما تسكنان قريباً من المستشفى. عنايتهما المضاعفة بي تجعل

مكتبة ياسين

مئي مريضاً ذا امتيازٍ، مريضاً مدلّلاً كطالبٍ خارجيّ في مدرسة داخليّة.

المستشفى نائم. كتبث الهيكل الذي قرأتموه للتوّ، وحسبت نسبة الحقيقة، حوالي 10٪.

مكتبة ياسين

51

بادئ ذي بدء، أمّي لم تكن تعرف فيديريكو فيليني. وبالتّالي، لم تشتغل معه قطّ. كانت زوجةً لجنديّ، مشغولةً بالانتقال، كلّ سنتين، فما كان لها، حتّى لو مُنحت الفرصة، أن تجد دقيقةً تكرّسها لخزانة الملابس في شينيتشيتا. الحقُّ أنّ علاقتها بصناعة الملابس، كانت تقتصر على حياكة «كنزات» أولادها الأربعة. حتّى، وهي تحت الشّمس المدارية، كانت تفكّر في خريف أبنائها. رأيتُها، في أتون جيبوتي، تحوك كنزاتٍ من الصوف الغليظ، لأبنائها الأكبر سنًّا، إذ بقيا في فرنسا.

وبالتّالي، لم أنم قطّ تحت حلمٍ من أحلام فيليني، علّقته أمّي أعلى مهدي. لا بل، أمضيت زمناً طويلاً من عمري في جهلٍ من أنّ فيليني بطلُ الحالمين. لم يصدر Il libro dei sogni، في فرنسا إلّا منذ سنواتٍ قليلة، لدى منشورات فلاماريون، بعنوان Le livre de mes rêves. كالعادة، كلّما أُعجبت بكتابٍ ساهمتُ في نفاد طبعته سريعاً، بأن أهديه لكلّ من أعرفهم. حقيقيٌ إذن أنّني طالما أزعجت أصدقائي بشغفي بفيديريكو فيليني.

مكتبة ياسمين

52

عن فيليني، كانت أمي تعرف الأفلام التي اصطحبتها لمشاهدتها في نيس، أيام شبابي. كانت تحبُ كثيراً تلك العروض التي يدعوها إليها آخر العنقود أيام عطله، وقد صار مدرساً. لحظات عواطف مميزة، تنتهي غالباً بعشاء في مطعم على شاطئ البحر. حتى أنني دعوتها ذات مرّةٍ إلى مطعم نغريسكو، على سبيل التجربة. (تلكم أوّل الحماقات التي وسوس لي بها راتبي خلال الأشهر الأولى). معي، شاهدت فيلم البهلوانات، وأماركورد، وروما، ولانافا فا، وجنغر وفريد، وإنترفيستا. ولمّا ظهرت البارجة في فيلم لانافا فا، عقدَ الذّهولُ لسانها. أمّا فيلم المتبطّلون Vitelloni I الذي شاهدناه في مكتبة سينمائية، فقد أضحكها.

قالت بلطفٍ، وهي تشير إلى أبطال الفيلم، الحمقى الأربعة: -إنّهم هكذا تماماً.

من غير أن أدرك، أ تقصد الشّباب بعامّة، أم تشير إلى ما حفظته عن أولادها من ذكريات، أيّام كانوا في مثل عمر الأبطال. ودهشت لردّة الفعل الحانقة التي صدرت عن بعض المشاهدين، عند الخروج من فيلم 8½.

قالت: - يظنُّ النّاس دائماً أنّ ثمّة شيئاً ليُفهم. إنّ فيليني بسيط، يكفي أن تتابعه. ثمّ إنّ 8½ يحكي قصّة رجلٍ يشكّ؛ هو فيلم يغيّزنا.

حتى وإن كانت أمّي قد أُخرجت من المدرسة في سنّ الرّابعة عشرة من عمرها، أو ربّما لأنّها أُخرجت منها، ظلّت قادرة على الولوج إلى الأعمال الفنيّة دون وسيط.

مكتبة ياسين

53

أكثر ما كان فيلينيّاً في أمّي، هو طولُ قامتها الذي يماثل طولاً قامة جولييتا مازينا. وكذا تسامحٌ مفرطٌ مع الرّجال الخدّاعين.

قالت مرّةً لامرأةٍ خانها زوجُها، فأتت تلقي بنفسها باكيةً بين ذراعيها:

- ما العمل، إنّهم يحبّون ذلك...

مكتبة ياسمين

54

كذلك لم يكن لي صديقٌ باسم لؤي. هذا الخيال الذي يتردّد كثيراً في أحلامي، والذي تضفي عليه أحلامي اسم والدي، هو بلا ريبٍ التجسّد لفكرةٍ طفولية، أن أجعل من أبي صديقي المثاليّ: صديق مسلٍّ، حصيفٌ، قويٌ، أمينٌ، فضوليٌ، مبادرٌ، حالمٌ، متأهّبٌ لأن يخوض كلّ المغامرات التي كنت لأمَلها لو أنّني خضتها بمفردي. باختصار: صديقٌ رائعٌ. أحبُ أن أتأمّل الأشياء الرّائعة. تلك عندي طريقةٌ أخرى للقراءة. الحقُّ أنّ أفضل أصدقائي هم قراءاتي المفضّلة- أصدقاء لا تعني ملفّاتهم النّقدية أحداً سواي.

مكتبة ياسين

55

بمناسبة الأصدقاء والأقارب، ألاحظ أنَ أحلامي تجمع بين أسماء من محيطي، تحكمها القطيعةُ منذ أمدٍ بعيد، أسماء أشخاص ما عاد بمقدور أيّ قوّة في هذا العالم أن تقنعهم بأن يقضوا عطلةً معاً، ولا حتّى أن يلتقوا ثانيةً.

- أنت وغريزة كلب الراعي التي لا تفارقك. تريد أن تجمع القطيع...

أليس محقّةً في تهكّمها على هذا الجانب من شخصيّتي. أُبدي أحياناً أثر كلب من كلاب البيرنيه البيضاء التي تسمّى «باتو»؛ كلابٌ تولد في كنف القطيع، وبالتّالي تذود عنه بكلّ شراسةٍ ضدّ الأخطار الخارجية، لكنّها غير مبرمجةٍ لأن تطيق المشاجرات بين نعاج القطيع.

- نحن النّعاج.

مكتبة ياسين

56

آه! كذلك، لم أمارس قطّ الغوص في الماء. لكنني لا أشك في المتعة التي كنت لأشعر بها لو أنني فعلت. ثمّ إنّ والدي لم يكن من نوعية الرّجال الذين يصطحبون أطفالهم في أمثال تلك الجولات. اللّهم إلى جولات في الكتب التي كان يتركها تتسكّع في المنزل، رهن أيدينا، بعد أن يقرأها، تلك الكتب التي كان يخرج منها غارقاً في الهواجس والفكر -كأنّما يلهث من صعودٍ-، فلا يملك أن يقصّ علينا ما قرأه. زد على أنّ والديّ لم يكونا من صنف الآباء المعاصرين، هؤلاء الذين نراهم اليوم، بسبب إكراهات إيقاع عملهم، يتخلّصون من ثقل أطفالهم بأن يعهدوا بهم إلى وابلٍ من الأنشطة «البنّاءة». والديّ أنا، كانا مسنّين حين أنجبانا، فكانا يحترمان استقلالنا، ولا يتدخّلان فيما نختاره من وسائل للترفيه.

مكتبة ياسين

57

شيء آخر: منزل فيركور ليس منزل طفولتي. إنّما هي مزرعةٌ، نطلق عليها، أنا ومين تحبيباً نعت «السَمينة»، اشتراها صديقنا روبير نحو سنة 1995، وعكف على إصلاحها، طيلة سنتين، كريستيفو، وكان آنذاك في السنّ التي كان يفضّل فيها عزلة الكدح وصمت الجبال على ما كان يسمّيه -وما يزال- الثرثرة الكونية. وإذن، كوخ الخشب الرّماديّ الذي أكتب فيه هذه الصفحات، ليس والدي من بناه سنوات طفولتي الأولى، بل هو من بناء صديقتنا دان نحو سنة 2010. إنّه بناء سداسيّ صغير، مسقوف بالقش، يمكنه أن يُستغَلّ مخزناً للأدوات، لولا أنّني أستغلّه مكتباً في الصّيف. إنّ المنازل، وإن هان شأنُها، تظلّ كائناتِ حيّة. وهذا الكوخ، وإن ضاقت مساحته، فإنّ له عبقريةً، تتجلّى في المساحات الخلالية التي تركتها دان -وهي الطبيعة مجسّدة- بين الألواح. إذ تسمح للرّيح بأن تسري بين الفراغات، فإنّ هذا الكوخ يقاوم حتّى أعتى الرّياح، وأستطيع أن أكتب فيه حتّى أثناء العاصفة. ما إن تدوي العواصف حتّى تعبر الكوخ هبّة ريح، وهذا كلّ ما في الأمر. كوخي يتنفّس. لا تفلح العواصف سوى في منحه مظهر الانحناء، على شاكلة أشجار التنّوب التي زرعناها جهة الشّمال، منذ نحو عشرين سنة. حين يستقر الصّمت أسمع الحياة تدبّ في «السّمينة»، على بعد ثلاثين متراً منّي، صياح الأطفال، إن كان ثمّة أطفال، ضحك نويلي إذ يُشاغبها فرانسوا، صيحات الفتيات وهن يلعبن السكرابل، غش فانسون أو كاهينا أو كريستوفو في لعبة الكرة الحديدية، إشاعات الصيف العذبة.

مكتبة ياسمين

58

بقي مشروع العرض المسرحي الذي ينبعث فيه فيليني. ذلكم هو أكثر ما في هذه القصّة واقعيةً. بعدما حلمت به، لم أعمل على تصميمه فحسب، بل حكيته لممثلي فرقتنا الإيطالية فونورو، وكذلك لصديقي جانلوكا الذي اقترح عليّ أن أفاتح إدارة بيكولو في الأمر. تجلّى لي العرض، والحشد الذي يجوب شوارع ميلانو، واضحين كأنّما حدثا بالفعل: كلارا في الإخراج، أليس في الموسيقى، تشيمو في الإضاءة، ماتياس خلف الكاميرا، ماسي على البوق الكبير، وباكو، ولودو، وديمين وليزا، وبيبي، وغيزهم متخفّين بين الجماهير... ثمّ الحفل الختاميّ في حديقة سمبيوني بميلانو.... كأنّما حدث الأمر. كأنّما لودو وروبيرتو قد حكيا لي أطوار الاحتفال. إنّها ذكرى تقريباً.

مكتبة ياسين

59

ثمّ أخيراً، هذه الغريبة الواقعيّة: لم أعتد الكهرباء قطّ. حين أضغط مفتاحاً، فيتحوّل اللّيل نهارا، أو النّهار ليلا، لا يبدو لي الأمر بديهياً. بالنّسبة إليّ ما يزال الأمر واقعاً ضمن دائرة المعجزة. بالطّبع لم يعد الأمر يشكّل لي مفاجأة، - فهو يصدق دائماً، ينطفئ العالم، ويشتعل العالم-، لكنّ مبعث دهشتي هو أنّني ما عدت أدهش لذلك.

مكتبة ياسين

60

راقبني المستشفى ما يكفي من الوقت، ثم أخلى سبيلي بعد أن حمّلني بشحنةٍ من نصائح الحذر. شهرٌ في فيركور تحت حماية مين. تعقُّلٌ. كوخٌ منحنٍ. كتابةٌ. الفصلُ 60. عودةٌ إلى باريس. وها أنا ذا.

مكتبة ياسين

VII

الإنجيل برواية القديس سيباستيان

لكن، ما الذي حدث حقاً؟

فيديريكو فيليني

كتاب أحلامي

مكتبة ياسين

61

عدنا، أنا ومين، إلى باريس. وصادفتُ -أمس-، في طريقي إلى صندوق البريد جارتنا فرنسواز (وهي تنحدر مثلي من منطقة نيس)، وكانت مبتهجةً بانبعاثي، فسألتني ما أصنع بحياتي الثانية.

- أصنع ما علّمتنيه الحياةُ الأولى. أكتب رواية.

- عن؟

- عن الحلم على ما أظنّ. أو عن فيليني إن كنت تفضّلين. فيليني، الحلم، أنا، عشيرتي... لا أدري حقاً.

- وهل تقدّمت في كتابتها؟

- كدتُ أنهيها.

- طويلة؟

- قصيرة.

- هل تقرؤها عليّ؟

قضينا الظّهيرةَ، في صمت وجهٍها المتنبّه، والذي تتعاقبُ عليه القراءةُ بالإضاءة والتّعتيم. لم تفلِت خيط الانتباه برهةً، وظلّت تصدر عنها أصواتُ تواطؤٍ، ولمّا فرغتُ من القراءة غمغمت فرنسواز ساهمةً:

- مذهل...

استغرقت برهةً في صياغة سؤال المذهل، ثمّ سألت:

- أو تعلم من هي الشّخصية المفتاح في هذا الكتاب؟

صمت.

- الشّخصية التي بفضلها صارت أحلامك كلها ممكنة...

صمت.

مكتبة ياسين

أجابت:

- إنّه القدّيس سيبستيان.

- القدّيس سيبستيان الذي لم تمتلك جدّتي قطُّ تمثاله؟

- نعم. ذاك هو. هلّا وصفته لي وصفاً دقيقاً ما أمكن؟

- أصفه من أيّ ناحية؟

- الصورة التي كوّنتها عنه في أحلامك.

- في المرّة الأولى كان يترنّح على عرش المدخنة (هي أيضاً لا وجود لها) في بيت أمّي. وفي المرّة الثانية كان حيّاً تحت الماء، في غرفة طفولتي.

- سنتحدّث عن ذلك لاحقاً. أمّا الآن، فاخرُج من الماء، ومن حلمك، وضع التمثال أمام ناظريك، وصفهُ لي وصفاً دقيقاً ما أمكن.

- إنّه تمثالٌ صغيرٌ من الخشب الصّقيل، خشب البقس ربّما، على قاعدةٍ من الرّخام، مصنوعٌ على هيأة التماثيل الدينية، ولكن على صورةِ الشّيطان، صورة تكاد تعكس عبادة إيروتيكيّة، كمعظم تماثيل القديس سيباستيان، بهيأتها على شاكلة رامي القرص، الهيأة التي تُبرِز عضلاتِ الجذع والفخذين المتينتين، والوجه المنطلق صوب النّشوة.. تمثال يجذ فيه العزاء المنعزلون من كلّا الجنسين.

أمْنت فرانسواز على كلامي: - سواء كانت منحوتةً أو مرسومة، كلّ تماثيل القدّيس سيباستيان تحيلنا على السّماء. هل ثمّة من تفصيل أثار انتباهك في تمثالك أنت تحديداً؟

- كانت لديه هالةٌ كهربائيّة.

- دع عنك الكهرباء. ما حجمُ الهالة؟

- كبيرة. حين اشتعلت، تخيّلتها ذيل طاووس.

مكتبة ياسين

- هالةٌ فائضةٌ عن الحدَ.

- أفضّل أن أقول إنّها غير متناسبة مع حجم التمثال.

كرّرت وهي تمطّ آخر حرف:

- مذهل!

ثمّ أضافت:

- عندي لك قصّة.

مكتبة ياسمين

62

تعود القصّة إلى نحو سنة 1970. كانت فرنسواز في ختام دراساتها بمدرسة الفنون بنيس، بينما أدرّس أنا في الشّمال. لم تدر أيّ مشروعٍ تقدّمه للحصول على دبلوم نهاية الدّراسة. ولم يكن ينقص منطقة نيس آنذاك الفنّانون المبتكرون. كان ثمّة بن و«كتاباته» المشهورة بكونها تجسيد لطلائعيّة الفنّانين الما بعد حداثيين. وكان ثمّة إرنست بنيون إرنست الذي كانت أعمال الكولاج التي يقوم بها تخاطب الشّعب في أزقّة العالم كلّها. وبمناسبة دبلوم نهاية الدّراسة، سعت فرنسواز إلى إبداعِ عملٍ فريدٍ يخاطب الجميع. والحالُ أنّ الكتابة على الجدران كانت محجوزةً، وكذا الشّارع، وسيزار يهيمن على النحت، وفرنسواز ما تزال تبحث عبثاً. جابت جبال العمق البريّ على متن دراجتها الهرمة BMW، وكان المحرّك يغلي كالمرجل والدرّاجة تتعطّل كلّ حين: تكرّز المكابس.

شرحت لي: - كان تصوير كلّ ما تقع عليه عينيّ، كلّما تعطّلت الدّراجةُ، جزءاً من مشروعي. كنت أنوي أن أسمّي المشروع «أعطاب». تعرف ذاك النوع من الحماقات.

- وما علاقة هذا بقديسي سيباستيان؟

- سترى.

ذات يومٍ، تعطّلت الدّراجةُ على ارتفاع خمسمائة متر، على مشارف ألب البروفانس العليا.

- مكثتُ أنتظر أن تبرد الدّراجة، جالسةً على شفير الطّريق، مؤرجحةً قدميّ في الفراغ، وإذا بي ألمح شاحنتين تتواجهان، على بعد نحو مئة متر أسفل قدميّ، في ورشٍ هائل. شاحنتان تنقضّ كلّ منهما

مكتبة ياسين

على الأخرى، في هدير صاخب، وحولهما العمّال، جاثمين على سفوح الجبل أو على معدّات البناء، يتصايحون مشجّعين كأنّما يتابعون مصارعة ثيران. تحطّمت المرايا الخارجية، وكانت أطراف القصدير تفرقع عند كلّ احتكاك، لكن الشّاحنتين تتفاديان بعضهما بعضاً، كلّما أوشكتا على الاصطدام. والعمال يصرخون «أوليه!». يلفُّ السّائقان كلّما بلغا حافة الطّريق، فتنزلق الشاحنتان قليلاً عند حافة الجرف، ثمّ تبدأ المواجهة من جديد، يكبحان السرعة، فيهدر المحرّك، ثمّ يرخيان المقبض، فتنطلق جولةٌ أخرى.

بالطّبع أخرجت فرنسواز الكاميرا؛ سبيلبرغ قبل الأوان.

سألتُها: - وقدّيسي سيبستيان؟

- مهلاً.

مكتبة ياسين

63

كان الأمر يتعلّق بورش سان كروا فردون، مشروعٍ مجمع مائيٍ هائلٍ، إغراقٍ وادٍ عظيم تحت سدٍّ عملاق. وقد أثار الأمر جدلاً واسعاً آنذاك. هل ستُغرق كلّ قرى الوادي؟ تأثرت الساكنة، وكادت تحدث قلاقل. وفي نهاية المطاف، ضُحي بقريةٍ واحدة، قرية لي سال سور فيردون، وقد أُعيد بناؤها مائة مترٍ بالأعلى، قبل أن تُطلق المياه. ذلكم أصلُ الورش الذي تتحدّث عنه فرنسواز.

- لقد عثرت على موضوع الدّبلوم.

سوف تصوّر فرنسواز إغراق القرية (التي أُفرِغت مقبرتُها بالفعل، قبل أن تُفجّر المنازلُ وتُفتح بوابات الماء). سوف تتابع هجرةَ السكّان إلى الطّابق الأعلى من الهضبة. سوف تستجوبهم، سوف تصوّر نظراتهم، مساءَ حين تقع أعينُهم على البحيرة؛ سوف تمسك بأرواحهم العتيقة تحوم فوق ماضيهم المغمور.

سوف تصوّر كذلك نهارَ العمّال الذين أتوا يبنون القرية في الأعلى. وكانوا رجالاً، بلا نساء، جزائريين وبرتغاليين، يرفُهون عن أنفسهم بمواجهة الشّاحنات - شاحنتان قديمتان من ماركة برلييه، تُركتا رهن دوافع اللّعب لدى السّائقين. استجوبت كذلك الصبايا اللواتي صعدن إلى التلّ من نيس، وكانُ، وتولون، وحتّى مارسيليا، لإشباع غرائز الرّجال.

كنّ يقمن مقصوراتهنّ في كلّ مكانٍ. أحياناً تكون المقصورة عربة ستروين من قصديرٍ متموّج، شبيهة بعربات الشّرطة التي كنّا نطلق عليها اسم أطباق السّلطة، هل تذكرها؟ أفقز النّساء كنّ يشتغلن تحت خيام. وكانت فرنسواز في الثامنة عشرة من عمرها. والمها مصير أولئك القوم. بارك مديز المعهد

مكتبة ياسين

مشروعها، وأمدَها بكلّ الشرائط اللازمة للتصوير. واقترح عليها بيع فيلمها للتلفزيون.

سألتها: - وقدَيسي سيبستيان؟

- مهلاً.

مكتبة ياسين

64

المفاجأة؛ لاحظت فرنسواز أنّ معظم المسئين لم يكونوا أسفين على منازلهم السابقة.

- لقد اكتشفوا مباهج الحمّامات والمطابخ المندمجة.

لم يكن ضباب الحنين يلطّخ زجاج نوافذهم. علمت فرنسواز كذلك أنّ التلفزيون لا يحبّ قصص المومسات والعمّال المهاجرين. وأنّ يد مدير المعهد لم تكن بالطّول الذي يسمح له بأن يجد من يشتري منه فيلماً يسيء إلى صورة التقدّم ومحاسنه.

- كانت تلك نهاية عامي الثامن عشر.

- وقدّيسي؟

- اصبر.

مكتبة ياسين

65

صادقت نجّار القرية، وهو في الأصل عجلاتيّ من سردينيا، هاجر شهر مايو من سنة 37، أسبوعاً بعد وفاة غرامشي. وكان اسمه غافيو سيكي. شيوعيّ قديم من مدينة أوريستانو، أرملٌ لكاثوليكيّة متعصّبة كانت تدعى بيبينا. الشّيخ سيكي أيضاً، لم يكن يتحسّر على بيته. لم يكن يفتقد سوى المصطبة الحجرية الصغيرة التي كان يجلس عليها هو وبيبينا كلّما غابت الشّمس.

- لم يخطر ببالي أن أحملها معي إلى هنا.

اقترحت عليه فرنسواز ما يُصلِح به غفلته تلك. غاصت في الماء بسلك مربوط إلى ونش، فاستطاع الأرمل أن يستمتع مجدّداً بمنظر الشّمس الغاربة.

أثناء غوصها، زارت أطلال منزل سيكي وزوجته، المنزل الذي لم يأتِ عليه التفجير. على مدخنة غرفتهما كان يتربّع تمثال القدّيس سبستيان.

- هو ذا قدّيسك. ومدخنة جدّتك بالمناسبة.

تمثال صغيرٌ من خشب البقس، له قاعدةٌ مِن رخامٍ صقيل، وهالةٌ عظيمةُ الحجم.

قال غافيو سيكي، رافضاً استعادة القدّيس المعذّب: - إنّه من هراء زوجتي.

على أنّ فرنسواز استشعرت في صوت الشّيخ السرديني شيئاً آخر، غير الشجارات الأبديّة بين الزوج الذي يسكر في الحانة وزوجته التي تحضر القدّاس في أثناء ذلك.

قالت لي: - كان ثمّة شيءٌ أعظم.

وما زالت تراود غافينو حتّى عرفت قصّة القدّيس الحقيقيّة. حكى لها غافينو ببطءٍ، جالساً على مصطبته، مقابلاً الشّمس الغاربة.

مكتبة ياسين

كانت تلك لعبةً بينه وبين زوجته. كلَما تخلَص غافينو من القدَيس، أعادته زوجته وزادت في حجم هالته. كانت تضيف إليها، في كلَ مرّةِ، دائرةً من خشبٍ تقطعه من غصن بقيسٍ، أو من جذر حشيشة كنيسٍ جافّة. ثمَ تصقلُ بصبر الأبديَة، سنتمتر الخشب المقاوم للعفن، فيضاف إلى ما سبقه، بحيث أنَ هالة القدَيس صارت تفصح عن عمر حبَهما، بالتأريخ لعدد مشاجراتهما، على شاكلة تلك الدَوائر التي يلهو الأطفال بعدّها على جذع الأشجار المقطوعة، لتحديد أعمارها.

قال غافينو: - صحيح. حين التقينا لم يكن القدَيس يملك أيَ هالة.

مكتبة ياسمين

66

سألتني فرنسواز: - تريد الحلّ لحبكتك؟ أترغب حقاً في معرفة كيف اقتحم هذا القدَيس حياتك؟

- إن لم يكن في الأمر سرّ...

- حسناً، أخبرني، أين كنت أنت آنذاك، وما كنت تصنع.

- كنتُ مدرّساً، في شمال البلاد.

- احك.

- وما العلاقة؟

- فقط احك.

مكتبة ياسين

VIII

قانون الحالم

إذاك، وفي منتصف الحياة، يبسط الحلم سينماه الشاسعة.

فرناندو بسوا

كتاب اللاطمأنينة

مكتبة ياسين

67

خلال تلك السَنوات نفسها، أي نحو 1970، كنت أنا مدرّساً مقيماً في ديرٍ قديمٍ شماليَ البلاد، تحوّل إلى مدرسة إعدادية بسبب اضمحلال المتعبّدين. فوق الزنزانة الضيّقة التي كنت أتّخذها غرفةً، كان ينام المتوسّطون (هكذا كان يسمّى التلاميذُ: الصغار، المتوسّطون، الكبار). مهجعهم كان مصنع الأحلام. أصدقائي الحالمون، القادمون من مختلف ربوع فرنسا، كانوا مراهقين متعثّرين، ترسلهم المؤسسة التعليمية ليشكّلوا هنا أقساماً تسمّى «مُكيّفة». بعضهم لم يكن يكتب. حتّى وإن كانوا يجيدون الكتابة، إلّا أنّهم كانوا يرفضون الكتابة رفضاً قاطعاً. يحرنون أمام الكتابة، كما تحرن الأحصنة أمام العوائق؛ يبدون نفس الرّفض المرعوب.

أولئك (بل الجميع) علّمتهم جمعَ أحلامهم. ليس كتابتها: بل فقط جمعها، ببساطة. يدوّنونها لأنفسهم فقط، ولا يطلعون غيرهم عليها. صار جني الثمار ذاك، أوّل أفعالهم الصّباحية. مفكّرةٌ أسفل السّرير. لم؟ مجرّد إكسسوار يهدف إلى إعادتهم إلى الكتابة عبر الطّرق الجانبيّة. ولكن أيضاً ليلتقطوا ما يسلّمه فتى اللّيل لفتى الصّباح. (كانت مدرسةً إعدادية للأولاد. لم يكن العالم قد اختلط بعد).

- أنا لا أتذكّر أحلامي أبداً يا أستاذ.

- ذاك ما تظنّه.

في المرّات الأولى لم تكن عمليات الجني تسفر عن شيءٍ تقريباً، فقط صورة أو إحساس. ثمّ يتشكّل جنين سردٍ. وآخر في الغد. سرودٌ ما انفكّ خيالهم يستولي عليها، شيئاً فشيئاً. ثم تتحول السرود إلى قصص، بلا علامات ترقيم، ولا إملاء صحيح ولا

مكتبة ياسين

نحو، لكنها تزدهر كلَ صباحٍ، أكثر فأكثر. وإذ كانوا يدوّنون أحلامهم لأنفسهم فقط، لم يكن ينتابهم الانطباع بأنّهم يكتبون. إنّما هي صور اللّيل تتشكّل تلقائياً في علامات حبرٍ على مفكّراتهم، وهذا كلَ ما في الأمر. وفي نهاية المطاف صارت أحلامهم تمتدّ وتنتشر، انتشار نبات اللّبلاب أو أزهار الوستارية.

لأنّ الخيال لا يدين بالوفاء للأحلام. هل استأذنتنا هي قبل أن تقتحم عالمنا؟

مكتبة ياسين

68

لم أكن أطالع البثة دفاتر تلاميذي الحالمين. كانوا شديد الخجل بكتابتهم المعطوبة. كانوا أشبه بمعطوبي الحرب الذين يرفضون أن يرى وجوههم أحد. علاماتهم السيئة في الإملاء، والتعليقات المحبطة («فلان ناقص 28، هل تلعبون لعبة من يخسر هو الرابح؟») أصابتهم بالشلَل. والنتيجة، كفّوا عن الكتابة والسّلام. لم أكن أقرأ أحلامهم، لكنني كنت أطلب منهم أن يملوها عليّ، وأدوّنها بنفسي على السّبورة. فيرون النّصوص تتجلّى في ملابس يوم الأحد، لا تشوبها شائبة من غلطات النّحو أو هنّات الإملاء، متزيّنةً بزينةِ الترقيم الأنيقة. بعد ذلك نقطع معاً، خطوةً خطوةً، الدرب المفضي من الكتابة المهلهلة إلى الكتابة اللائقة. جراحة تجميلية، إعادة تركيبٍ دقيقة للأسطر.

مكتبة ياسين

69

وبعد أن أعدتهم إلى درب الكتابة، منعتُ أولئك التلاميذ أنفسهم من أن يحتالوا بحيلة الحلم كلّما أرادوا الانصياع للواقعية المدرسية: احك عن... تذكّر كذا... تخيّل أنا... ضع نهايةً لهذه القصة...؟

«ولا تلجؤوا إلى حيلة الحُلم، مفهوم! لا تحاولوا الهرب من ذلك الباب؛ أنا في أعقابكم حاملاً هراوةً غليظة!»

- أنت قاسٍ يا أستاذ.

مكتبة ياسين

70

أمَا ليالي أنا، فكنت أقضيها في المترو الباريسيّ، قاصداً المرأة التي تركتني منذ عامين. ولم أكن أصدّق أنّها هي أيضاً تركض نحوي. ما زالت تحبّني إذن! ألمحها في البعيد. أتعرّف عليها. أهرع إليها. تتعرّف عليّ هي أيضاً، فنركض باتّجاه بعضنا بعضاً، بذراعين مفتوحتين. لكن في اللّحظة التي نتلاقى فيها، تخترقني، وتمرّ عبري، كأنّني فقدت كلّ صلابةٍ وتماسكٍ، كأنّما أنا شبحي. تعبرني، تقفز في المترو المنطلق، وتختفي رفقة عائلتي كلّها.

أستيقظ كالميت في زنزانة الرّاهب التي أتّخذُها غرفةً. ذلكم أحد الأحلام المتكرّرة التي كنت أراها منذ أن افترقنا.

حلمٌ آخر شبيه بالحلم الأوّل. نركض باتّجاه بعضنا بعضاً، لكن هذه المرّة في بهو ثانوية كاسينا، حيث تبادلنا أوّل قبلة. كنت سعيداً لأنّ الرّكض لا يتمّ في المترو. وهذه المرّة، أركض نحوها بشحمي ولحمي، واثقاً من كثافة بدني، نازلاً بثقلي العاشق على أرضيّة البهو الذي يهتزّ تحت قدميّ؛ لا يمكنها أن تخترقني. ولم تكن تنوي ذلك، كانت تركض نحوي باسمةً، وقدماها حافيتان تطقطقان بمرحٍ على البلاط. سنلتقي! تفصلنا عن اللّقيا خطوتان. غير أنّ باباً ينفتح، ويخرج من أحد الأقسام ناظرٌ هرمٌ، محفلاً بأوراق امتحان، قريباً مئي بحيث لا أملك أن أتفاداه. أصطدم به بكلّ ثقلي، يهوي من فوق الدرابزين، وأراه يلتفّ ساقطاً في الفراغ، وحوله الأوراق تتطاير، فأستيقظ قاتلاً.

مكتبة ياسين

71

روائياً، ليس لي ما أستخلصه من تلك الكوابيس. إنَها أحلام مغلقة. لا تنفتح على أيَ سرد. حتَى أنَني لم أقصّها على أحد، ولا أنوي أن أبيعها لمحلّلٍ نفسيَ. أكتفي بأن أدوّنها، كلَما عرضت لي. وهذه أوّل مرَةٍ أذكرها. جلُ ما فعلته تلك الأحلام، أن أوحت إليَ بمصالحة تلاميذي والكتابة، عبر عمليّة جني الأحلام. كان أصدقائي المتعثرون يحبّون طريقة الكتابة تلك، الكتابة دون كتابة. وما زال منهم اليوم (بعد نصف قرنٍ، وقد صاروا مواطنين محترمين، لا يخطؤون في الإملاء) من يدوّن يوميات أحلامه.

72

أحياناً كنت أحتاج إلى أن أغادر حشد الإعداديّة الصَغير. وفي تلك الأماسي التي كنت أبتعد فيها عن الحشد، لم أكن أتناول الطَعام معهم في مطعم المدرسة، بل في فندق مندوبي مبيعات. لا مكان أفضل من ذلك للعزلة. بضعة رجالٍ يتناولون طعامهم صامتين، في موائد منفصلة. يتصفّحون كتالوجاتهم ساعة شرب منقوع اللويزة(6)، أو كأس فيرني-برانكا، ثمّ يصعدون للنوم. أمّا أنا، فأعكف على أوراق الامتحان أصحّحها. يتركني عمّال الفندق (وهم من آباء الطَلبة) أشتغل حتّى ساعة الإغلاق. إذ تحين ساعة الإغلاق، يرفعون صوت التلفاز -الذي يكون حتّى تلك اللَحظة مشغَلاً في وضعية صامتة-، نشرب معاً كأس كالفادوس، ونحن نتابع أخبار الثامنة. ذلكم كان طقسنا.

مكتبة ياسين

73

قالت فرنسواز: - لا تجهد نفسك بالبحث، لا بدَ أنّك رأيت تمثال القدّيس سباستيان في مساءِ من تلك الأماسي، وأنت تتابع أخبار الثامنة. ذاك هو المقطع الوحيد من فيلمي الذي قبل التلفزيون تمريره. سبع عشرة ثانيةً من حياة قدّيسٍ غريقٍ، بينما يحكي تعليقٌ صوتي أطوار إغراق الوادي. طلب مني غافينو أن أعيد القدّيس إلى مكانه، تكريماً لذكرى بيبينا، فصوّرتُ عملية إعادته. كان يبدو في الفيلم، كما رأيته في حلمك، تحت الماء وعلى مدخنة الغرفة، بهالته الهائلة. لا بدّ أنّه ما يزال هناك. لم تكن الهالة كهربائيّة، لكنّ شعاعَ شمسٍ غارباً، كان يضفي عليها بعض بريقٍ. غد إلى يوميات أحلامك. لقد أذاعت التلفزة الزبورتاج يوم 20 يناير، وهو اليوم الموافق لذكرى القدّيس سيباستيان. (علّقتْ: وهي نفسها ذكرى ميلاد فيليني). لا بدّ أنّك حلمت به تلك اللّيلة.

مكتبة ياسين

74

غيرَ مستبعدٍ أن أكون قد شاهدت ذلك الربورتاج، لكنني لا أحمل عنه أيَّ ذكرى. وبالعودة إلى دفتر أحلامي، لم أحلم بالقدّيس سيباستيان ليلة إذاعته. في تلك اللّيلة، الموافقة بالفعل لتاريخ 20 يناير، عدتُ من مطعم المندوبين مبلّلاً، وظلّ وابلُ المطر يضرب نافذة زنزانتي، وهويت في حلمٍ آخر. حلم صار يتكرّر بعدها كثيراً، لكنني استقبلته، في المرّة الأولى، برضاً، لأنّ صديقتي لم تكن تؤدّي فيه أيّ دور. لم تكن فيه. قلت لنفسي: لقد شفيتُ، أخيراً استعدت نفسي. شعرتُ بارتياحٍ عظيم. حلمت أنّني جالسٌ، مطمئنّاً، في مكتبةٍ صغيرة، تتجُّ فيها نارٌ طيّبة. متكوّماً في مقعدٍ، أغمغم، أجول بعينيّ رفوف المكتبة حولي، باحثاً عن عملٍ يستحقُّ القراءة. كنت أبحث عن رواية بولينا 1880 لبيير جان جوف. عناويني المفضّلة، تمرّ أمام ناظري كأنّها موكبٌ باختصار، كان حلماً عذباً. لن يلبث أن يتحوّل إلى كابوس. فجأةً بدأت المكتبةُ ترتجف، كلّ الأغلفة تهتزّ، كأنّها جلد حصانٍ لدغته نعرة. ثمّ بدأت الكتب تنقلع، في صوتِ شفطٍ، وتنفصل بعضها عن بعضٍ، وبدأ حبرها يمّحي. كانت تفرغ. المداد يسيل تحتها، فيغطّي الرّفوفُ بلوحٍ من الرّخام السّائل، تتماوج فيه أضواء المكان. وما تزل بركة الحبر الصّغيرة تتعاظم وتزداد سمكاً، وترتجفُ عند حواف الرفوف. قلت لنفسي إنّها ستفيض. لا رادّ لفيضها. أفترضُ أنّ الحروف المائلة توحي بالكارثة الوشيكة. إنّها تنذر باللّحظة التي سيفيض فيها الحبر، حولي، من المكتبة، فيغرق مكتبي، ويغمره، ثمّ يغرقني. أولى القطرات أحدثت صوتاً خافتاً على الأرضيّة. أخذت تتشكّلُ بركةٌ، ما انفكّت تتقدّم نحو مقعدي

مكتبة ياسين

في مُويجاتٍ دائريَة. كوَمتُ نفسي بين مسنديّ المقعد وظهره، رافعاً قدميّ عن الأرض، كي لا يتَسخ حذائي. قلت لنفسي، هذه المرَة لن أستطيع الإفلات بالزَكض من حجرٍ إلى آخر، كما فعلتُ يوم فيضان النُور... كلَا، هذه المرَة هي النَهاية حقاً!

مكتبة ياسين

شكر

إلى غامان، إلى مين، إلى أليس، إلى فانشون، إلى ياسمينة، إلى فانسون، إلى بابوان، إلى جانلوكا، إلى فرنسواز، باختصار إلى قزائي الأوائل المعتادين...

(1)أزهار الحودان.

(2)الصابورة، أو مياه الاثزان غير النظيفة، تشير إلى المواد المستخدمة في ضمان اثزان المركب.

(3)كتاب أحلامي.

(4)كلها عناوين أفلام لفيليني.

(5)رقصة إيطالية.

(6)كذا اسمها في بلاد المغرب، وتسمى في المشرق عشبة رعي الحمام، أو رجل الحمام، أو ساق الحمام.

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook